المؤثرات العربية فى شرق أفريقيا

بقلم الدكتور سيد حامد حريز(*)

عرفت افريقيا الرجل العربى بحارا ومستكشفا • كما عرفته تاجرا يسخر البحار ويفد الى شواطئها بسفنه ويجوب آفاقها بقوافله • وعرفته كذلك لاجئا دينيا وسياسيا ، ومبشرا صاحب رسالة ، واداريا ومعلما • ولقد امتدت جذور هذه العلاقة والصلات الى أعماق التاريخ وأثرت فى شتى مجالات الحياة فى افريقيا مما أدى الى صياغة الواقع الثقافى فى بعض أجزاء القارة وساعد على ربط العرب والأفارقة فى اطار سلوكى وثقافى وسياسى • ولعل الأثر العربى يظهر جليا وواضحا فى شرق افريقيا بسبب ارتباطها ببعض أجزاء الوطن العربى عبر الحقب التاريخية المختلفة ، ففى شرق افريقيا تكتسب العلاقات العربية الافريقية عمقا تاريخيا وكثافة واتساعا يشمل مختلف مجالات الحياة •

ولابد من متابعة نشأة وتاريخ وتطور هذه العلاقات وتوضيح مجالاتها وما واجهته من سلبيات ، حتى نتفهم الخطوات الجادة التى ترمى لربط افريقيا بالأمة العربية سياسيا واقتصاديا وثقافيا • ولابد أيضا من اعطاء مجالات التقريب والتعاون التى نشهدها ونعيشها فى هذه الاونة الأخيرة البعد الزمنى والاطار الفلسفى اللازم • وان لم نفعل ذلك ظل التعاون العربى الافريقى أشبه بالمعونات التى تقدمها بعض الأمم الكبرى (لاسيما الدولتين العظميين) الى دول العالم الثالث والتى تستلمها الدول

(*) أستاذ بمعهد الدراسات الافريقية والآسيوية ــ جامعة الخرطوم .

الفقيرة وتستفيد منها ــ بحكم حاجتها لها ــ الا أنها دائما تنظر لها بعين الشك والتوجس • لذلك لابد من اعطاء هذا التعاون والتقارب العربى الافريقى مضمونه وتوضيح فلسفته مع التركيز على انه امتداد لصلات قديمة نتجت عنها التأثيرات الثقافية المتبادلة • ويتطلب كل ذلك بث الوعى بين الجانبين وتوضيح هذه الصلات القديمة والبعد بها عن الريبة والتوجس • وخير منطلق لهذه التوعية توضيح التداخل الجغرافى والسكانى بين افريقيا والعالم العربى • ويجدر بنا أن نوضح فى هذا المقام الحقيقة الهامة التى نبهنا اليها الدكتور بطرس غالى فى عام ١٩٦٣ عندما ذكرنا بأن ٧٢٪ من مساحة العالم العربى تقع فى افريقيا ، وان ٦٠٪ من العرب يسكنون فى افريقيا[١] • ولقد استفاد الدكتور على مزروعى من هذه الفكرة وطورها عندما ذكر بأنه يصعب الحديث عن العرب ووصفهم بأنهم أفارقة أو آسيويون من الناحية العرقية بل انهم ينتمون الى آسيا وافريقيا فى نفس الوقت ولذلك فخير مايوصفون به انهم آفرو ــ آسيويون • وعليه فمحاولة الحديث عن العالم العربى والعالم الافريقى وكأنهما كيانين مختلفين ، أمر يجانب الواقع ويدعو للتصحيح ويذكر الدكتور على مزروعى أن هذه الحقيقة قد وضعت الحركة « الافريقية الشاملة » Pan Africanism فى وضع محرج ومتأرجح ، فبينما نجد أن الهدف الأساسى من وراء هذه الحركة هو التركيز على « الافريقية الخالصة » الا أننا نجد أن بعض نتائجها وانعكاساتها تجعلها افرو ــ آسيوية وتربطها بالعالم الاسيوى (وبالوطن العربى على وجه الخصوص)[٢] • فدعاة حركة الـ Pan Africanism بقدر ما يتوقون لاعتناق وترويج فكرة « الافريقية الخالصة » الا أن واقع الحال يبين لهم بأنه لايمكن اعتبار العرب عنصرا دخيلا يمكن

---

1) Boutros Ghali (1963).

2) Ali Mazrui (1971).

أو يجـوز عـزله عن هذه الحـركة • وقد لاحظ هذه الحقيقة دوبو W. E. B. Deubois الأب الروحى لفلسفة الـ Pan Africanism كما لاحظها غيرهمن القادة والمثقفين الأفارقة أمثال توم مبويا Tom Mboya

ونجد أن فكرة هذا العنصر المختلط عرقيا وثقافيا تقوى فى بعض أجزاء القارة الافريقية وتضعف فى أجزاء أخرى ، فعلى سبيل المثال نجد أن هذه الفكرة تقوى بالنسبة لمنطقة شرق افريقية وبالذات بالنسبة للمواطن السواحيلى الذى ينظر اليه كشخص مهجن يجمع بين العنصرين العربى والافريقى • وكثيرا مانجد أن الأمر يختلط عند الحديث عن هذا العنصر الجديد الذى لايزال يحفه الغموض أحيانا بسبب ازدواجيـة تكوينه • فأحيانا نجد الحديث عن بعض المجموعات السواحيلية فى شرق افريقيا على أساس أنهم عرب وأحيانا نجد من يتحدث عن العرب على أساس أنهم سواحيليون [٣] • وهناك من بين الكتاب من يجد لنفسـه مخرجا ويتحدث عن « العرب والسواحيليون » فى آن واحد تفاديـا للمشكلة ومن غير توضيح يبين لنا اذا ماكان يتحدث عن مجموعة واحدة أو مجموعتين [٤] • ولعل المنطلق هو ان نتفادى محاولة الحديث عن العرب والأفارقة وكأنهما كيانين منفصلين • فذلك يدخلنا فى مزالق أشبه بالتى أشرنا اليها والتى نبه اليها الكتاب الذين ورد ذكرهم •

بعد هذه التوطئة الضرورية أذكر أننى سأتحدث فى هذه الدراسة المختصرة عن « المؤثرات العربية فى شرق افريقيا » وذلك رغم تخوفى من هذا الاتجاه فالتأثير والتأثر وجهان لعملة واحدة • وبنفس الصورة التـى أثر بها العرب فى ثقافة شرق افريقيا تأثروا أيضا بهذه الثقافة • غـير أننى أقصد حديثى فى هذه المرة على جانب واحد من هذه العملية المتداخلة• وآمل أن تتاح الفرصة لى أو لغيرى مستقبلا لتوضيح مدى الأثر الأفريقى

---

3) C. S. Nicholls (1971), p. 64.

4) A. I. Salim (1973), 76 ff.

على الثقافة العربية • وسأنوه فى آخر هذا البحث الى بعض مظاهر الأثر الأفريقى على العرب • سيتركز حديثى على المنطقة الساحلية (الحبشة والصومال وساحل تنزانيا وكينيا) •

وسنقسم هذا البحث الى قسمين :

قسم يرصد المعالم الرئيسية والصلات العربية الأفريقية ، وقسم آخر يتناول بعض جوانب الأثر العربى فى ثقافة شرق افريقيا بتركيز خاص على اللغة والأدب وذلك على أساس أنهما رافدان أساسيان من روافد المجال الثقافى وسيلاحظ القارىء الأثر الاسلامى الواضح فى ثقافة شرق افريقيا وفى صياغة الشخصية السواحيلية •

وهذا أمر بديهى لايمكن انكاره • غير اننى اكتفيت بتوضيح بعض معالم وآثار هذا الأثر الثقافى العام من غير الدخول فى سرد لانتشار الاسلام فى شرق افريقيا أو مناقشة لطبيعة الاسلام « السواحيلى » وسماته المميزة • وذلك ادراكا منى بأن هذا الأمر يحتاج لدراسة شاملة ومفصلة •

الصلات التاريخية بين جزيرة العرب والساحل الشرقى الافريقى(*)

كانت الصلة بين الجزيرة العربية والساحل الشرقى لافريقيا أمرا بديهيا وحتميا • ولتوضيح حتمية هذه الصلة يجب أن نذكر هنا أن الحاجز المائى بين الأرض الافريقية والأرض العربية لايتعدى الخمسة عشر ميلا فى منطقة باب المندب • ولا غرو اذا أن نجد أن هذه الصلات ذات جذور

(*) يجب ان اشير هنا الى انه لايهمنى فى هذا المقام ان اعطى سجلا مكتملا للصلات والحوادث التاريخية التى ربطت الجزيرة العربية بالساحل الشرقى الافريقى . بل ما ارمى اليه هو أن أقف عند بعض المعالم الرئيسية لهذه الصلات والحوادث بقصد توضيح المؤثرات العربية فى الساحل الشرقى الافريقى .

تمتـــد الى أعمـــاق التاريخ ، بل الى ماوراء التاريخ المعروف لدينا • فالعلاقات بين الجنوب العربى ومنطقة الحبشة والصومال تمتد الى ماقبل الاسلام والى ماقبل مولد المسيح ، فهى اذا تسبق التاريخ الهجرى المسيحى على حد سواء •

هناك أربعة حقائق جغرافية ومناخية وبيئية لابد من الاشـــارة اليها لأنها ساعدت على ربط الجزيرة العربية بالساحل الشرقى لافريقيا :

(أ) أولا ماذكرنا عن قرب الشقة بين القارتين وقصر « الحاجز » المائى فى بعض الأماكن (ولعله من الاصح ان نقول الممر المائى لأنه لم يكن حاجزا بالمعنى الصحيح) •

(ب) ثانيا ظاهرة الرياح الموسمية التى تهب من الشـــمال الشرقى الى الجنوب الغربى فى أوقات ومواسم معلومة عرفها العرب واستفادوا منها فى تحركاتهم التجارية •

(ج) ثالثا ان الساحل الشرقى لافريقيا ــ لاسيما فى منطقة الصـــومال وذنجبار وبعض أجزاء من كينيا وتنزانيا ــ يمتد من الشـــمال الشرقى الى الجنوب الغـــربى • أى فى نفس خـــط هبوب الرياح الموســـمية •

(د) رابعا ان العـــرب كانوا أمه تجاريه ذات معرفة بأسرار البحـــار وســـيادة عليها منـــذ أمد بعيد مما دعا بعض الكتاب لتشبيههم بالفينيقيين وتلقينهم « فينيقيو بحر الجنوب » وذلك لدرايتهم التامة بأسرار وموانىء ومرافىء هذا البحر ولمقدرتهم على التكيف مـــع الرياح الموسمية •

كل هذه الأسباب الطبيعية والجغرافية والمناخية والاقتصادية كانت تسوق السفن العربية سوقا الى شواطىء الساحل الشرقى الافريقى فكأنه كان أمرا حتميا وقدريا لا مناص منه ان يلتقى العرب بســـكان الساحل الشرقى للقارة الافريقية •

قامت العلاقات الثقافية بين الجنوب العربى والشرق الافريقى منذ أكثر من ثلاثين قرنا [٥] • وكما يذكر الكثير من المؤرخين شهدت اليمن ممالك عظيمة امتدت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد الى القرن السادس الميلادى ، ومن أهمها ممالك سبأ وحمير[٦] • ولقد اقامت هذه الممالك العلاقات التجارية مع الساحل الافريقى • وفى فترة مملكة سبأ بلغ عرب الجنوب ذروة سلطانهم فى منطقة البحر الاحمر والساحل الشرقى لافريقيا •

ومن الوشائج القديمة التى يصعب تحديدها ، والتى يختلف فيها العلماء ويوردون آراء متضاربة حولها ، ماكان من ارتباط **الأثيوبيين** بالعرب فى اطار المجموعة السامية (Semites) ورغم اختلاف العلماء فى الموطن الأصلى لهذه المجموعة وزمن وكيفية تفرقها ، الا أنهم يتفقون على أن البابليين والاشوريين ، والفينيقيين واليهود والأرمن والعرب والأثيوبيين ينتمون لهذه المجموعة • ولاشك انهم فى زمن مضى كانوا يسكنون فى مكان واحد وكجنس واحد قبل أن يتفرقوا والبينات التى توضح ارتباط أفراد هذه المجموعة — أى المجموعة السامية كثيرة ومقنعة • وهى تظهر فى التشابه اللغوى أكثر من غيرها • وسنعرض لأمثلة منها فى وقت لاحق • ولقد ذكر بعض العلماء أن اثيوبيا هى الموطن الأصلى للساميين الا أن المرجح أن الجزيرة العربية هى موطنهم الأول[٧]• وما يهمنا هنا أن الارتباط العرقى والثقافى الوثيق بين شرق افريقيا (ممثلا فى اثيوبيا) وبين العالم العربى (ممثلا فى جنوبه) أمر واقع ومشهود به •

---

(٥) محمد احمد خلف الله ، **الجذور التاريخية للعلاقات الثقافية بين العرب والافارقة** ، بحث مقدم لاجتماع الخبراء لدراسة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية ، القاهرة ١١/٢٩ — ١٩٧٧/١٢/١ .

6) P. Hitti (1970), p. 8.

(٧) راجع :

P. Hitti (1964), p. 54.

فى الفترة مابين عام ١١٥ قبل الميلاد وعام ٣٠٠ ميلادى — فترة مملكة حمير ، ارتحلت بعض العناصر العربية من اليمن وحضرموت الى اثيوبيا وكونت بعض المجموعات التى أصبحت النواة لمملكة اكسوم •

وفى القرن الرابع الميلادى تمكنت اثيوبيا من غزو وحكم بعض أجزاء الجزيرة العربية • فى تلك الفترة كان ملوك الحبشة يطلقون على أنفسهم لقب (ملك اكسوم ، حمير ، تهامه ، حضرموت والحبشة) • ويذكر بعض المؤرخين أن هذا الغزو وماتبعه من بسط النفوذ الاثيوبى فى مملكة حمير فى الفترة مابين ٣٤٠ الى ٣٧٨ سبقته غزوات أخرى فى القرن الثانى والثالث الميلادى أدت الى تغلغل النفوذ الأثيوبى فى الجنوب العربى •

وابتداء من القرن الرابع الميلادى وقع الجنوب العربى وجارته اثيوبيا تحت تأثير القوى الكبرى (الفرس والروم) التى كانت تدور فى محورها السياسة الدولية فى ذلك الوقت ولاشك أن الديانتين الكبيرتين انسماويتين فى ذلك الوقت — أعنى اليهودية والمسيحية — قد ارتبطتا ارتباطا وثيقا بالسياسة وأثرتا فى علاقة الأمم المختلفة • فلقد استعملت المملكة البيزنطية أثيوبيا التى كانت تمثل قاعدة مسيحية فى منطقة البحر الأحمر للثأر للمسيحيين فى الجنوب العربى وللانتصار للمسيحية فى جزيرة العرب • وكان من نتيجة ذلك ان هاجم امبراطور اثيوبيا الجنوب العربى وانتصر عليه فى عام ٥٢٥ • وبذلك بسطت اثيوبيا نفوذها فى تلك المنطقة حتى عام ٥٧٥ •

ولقد قال فطن الاثيوبيون لحقيقة هامة وهى ان الدين والسياسة والانتصار الحربى والنفوذ السياسى كلها عوامل متداخلة ترتبط ببعضها بعضا • حاول الاثيوبيون بناء نظام تجارى دينى ممتدا من الجنوب العربى ومتمركزا فى مدينة صنعاء على غرار النظام الذى نشأ وتطور حول مكة عبر سنين طويلة • ولقد أدى هذا الصراع الى محاولة هدم الكعبة المشار اليها فى سورة الفيل • ومن هنا يبدو جليا أن اثيوبيا التى استغلتها القوى

الكبرى فى الصراع السياسى الدينى الذى كان يدور فى تلك المنطقة آنذاك، اغرتها انتصاراتها وشجعتها فحاولت أن تصبح هى الأخرى دائرة نفوذ متمركزة فى الجنوب العربى • واودت بها تلك المحاولة فى الدخول فى صراع ضد النظام الاقتصادى والدينى القائم فى شمال الجزيرة العربية والذى يتمثل فى الكعبة •

وفى فجر الاسلام عندما لمس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مايلقاه المسلمون من عنت واضطهاد أوعز اليهم بالهجرة الى اثيوبيا • ولاشك أن هذه الخطوة تؤكد الارتباط الوثيق بين شرق أفريقيا والوطن العربى ، بل وتؤكد الاحساس بهذه الصلة • فالشرق الافريقى قريب والوصل اليه ميسور بفضل السفن العربية ومهارة العرب فى شئون البحار • وهو بعيد من حيث انه يهىء الأمن والملجأ للوافدين اليه • فلا غرو اذا ان نجد ان اللاجئين الدينيين واللاجئين السياسيين يقصدون الساحل الشرقى الافريقى على مر العصور • ولعل فى ايعاز الرسول صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بالهجرة الى أثيوبيا ادراك مسبق بأن افريقيا ستستقبلهم وتتقبلهم • وهذا ماحدث بالفعل فى أجزاء عديدة من افريقيا • وذلك أمر بديهى فالصلات العربية الافريقية ذات جذور موغلة فى القدم ، فالمهاجرون العرب فى القرن الأول الهجرى وجدوا من سبقهم من العرب فى الهجرة الى تلك الديار ، كما وجدوا فيها مجموعات افريقية ترتبط بهم عرقيا وثقافيا •

واذا تركنا منطقة أثيوبيا وما جاورها وتحدثنا عن الصلات والنتائج الحضارية بين العرب والأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى الافريقى ، نجد أيضا أن بعض هذه الصلات مثل صلات الحضارة بالساحل الشرقى لكينيا وتنزانيا ترجع الى ماقبل الاسلام • ولكنه يصعب تحديد زمن هذه الصلات أو الحدث عنها بشىء من اليقين[٨] • ومن أوائل المصادر التى

---

8) A. I. Salim (1973), p. 10.

تتحدث عن هذه المنطقة ، وعن الساحل الشرقى الافريقى عامة كتابع (الليل الملاحى للبحر الاريترى) •

Periplus Maris Erythream الذى يرجع تاريخه الى القرن السادس قبل الميلاد[٩] • غير أن تفاصيل هذه العلاقات تبقى مشوشة وغير واضحة وذلك بسبب بعد الزمن وشح المصادر التى تتحدث عن الأزمان البعيدة • واذا كانت الصلات بين الجزيرة العربية ومنطقة أثيوبيا تبدأ قوية قبل الاسلام وفى فجر بزوغه ، فان الصلات بين الوطن العربى والأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى الافريقى تقوى وتشتد بعد ظهور الاسلام • بل يمكن القول بأن تلك الصلات التى تؤثر فى منطقة سواحل كينيا وتنزانيا وبعض الجزر المتاخمة لها ، يمكن القول بأنها تنشأ فى كنف الاسلام وفى عصور خلفائه وولاته • ولاشك أن ذلك يعطى ثقافة تلك المنطقة نكهة اسلامية مميزة سنتحدث عنها فيما بعد •

من بين أوائل الصلات التى تتضح معالمها هجرات العمانيين والحضارمة الى تلك الأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى • ويرجع جمال زكريا أن « أول هجرة عمانية وفدت الى شرق افريقيا حدثت فى عام ٦٩٥ م حينما قام العمانيون بزعامة سليمان وسعيد من آل الجلندى بثورة ضد الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٧٤ — ٧٠٧م ذلك أن عبد الملك اتبع سياسة قبلية فى شبه الجزيرة العربية فاستعان ببعض القبائل على البعض الآخر • فاضطرت بعض القبائل المهزومة الى الهجرة خارج الجزيرة العربية ومن بينها قسم من قبيلة الازد العمانية هاجر الى ساحل شرق افريقيا »[١٠] ومن ذلك الوقت نجد أن هذه الصورة تتكرر عبر العصور المختلفة لاسيما بين عرب الجنوب والخليج العربى ، وبين العمانيين على

---

(٩) راجع بحث الدكتور جمال زكريا فى الدراسة التى قدمها معهد البحوث والدراسات العربية : **العلاقات العربية الافريقية : دراسة للاثار السلبية للاستعمار** ، ١٩٧٧ ، ص١٦ .

(١٠) نفس المصدر .

وجه الخصوص • نجد ان سواحل كينيا وزنجبار والجزر المتاخمة لها قد أصبحت ملاذا وامتدادا وملجأ للقبائل والأسر المتنافسة على السلطة • نلاحظ أن تلك الصفة التى اكتسبها الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى تشبه الى حد كبير ماحدث فى الجزء الشمالى من الساحل ، وبالذات ماحدث فى منطقة اثيوبيا من حيث اعتبارها ملجأ وملاذا • ونلاحظ أيضا أن هذه الصلات المشار اليها ، والتى بدأت قبل الاسلام وفى فجره فى الأجزاء الشمالية من الساحل الشرقى ، استمرت حتى القرن الثامن عشر فى الأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى •

وفى القرن العاشر الميلادى نجد ان النشاط البحرى والتجارى للعمانيين والحضارمة قد ازدهر بصورة واضحة ، فقد كانت السفن العمانية تنقل بعض بضائع الساحل الشرقى الافريقى الى الهند والصين مارة بعمان • وكذلك لعب التاجر العمانى دور الوسيط فى هذه العملية • كما استقرت مجموعات من التجار العمانيين فى شرق افريقيا وكذلك وفدت بعض الهجرات اليمنية الى المنطقة فى ذلك الوقت •

ويبدو ان الصلات العربية الافريقية التى نتجت عنها الثقافة السواحيلية قد تبلورت وازدهرت وآتت أكلها فى القرن الرابع عشر • ويتضح ذلك من وصف ابن بطوطة (الذى زار تلك المنطقة فى القرن الرابع عشر) للغة السواحيلية ، احدى الثمار الهامة للاتصال والتفاعل العربى الافريقى •

وفى بداية القرن السادس عشر وقع الساحل الشرقى تحت قبضة الاستعمار البرتغالى • ولا يهمنا هنا الحديث عن تاريخ أو مظاهر هذا الاستعمار البرتغالى ، بقدر ماتهمنا آثاره على العلاقات العربية الافريقية وعلى المؤثرات العربية فى منطقة شرق افريقيا • وتجدر الاشارة الى أن الساحل العمانى الذى شهد علاقات وطيدة بالساحل الشرقى الافريقى قد تأثر أيضا بالاستعمار البرتغالى • ويبدو أن العدو

المشترك ممثلا فى الاستعمار البرتغالى قد قرب الشقة بين الساحلين الشرقى الافريقى والعربى العمانى • فنجد أن العمانيين يساعدون السواحيليين فى حربهم التحريرية ضد الاستعمار البرتغالى[11] • ولاشك ان الدافع الأساسى الى ذلك هو أن العدو واحد — كما ذكرت •

بجانب ان المصالح العمانية فى المنطقة قد تهددت • وشهدت الفترة بين نهاية القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر مرحلة جديدة من الوشائج العربية الافريقية التى لعب فيها العمانيون دورا بارزا • ففى عام ١٦٩٨ انتزع العمانيون مدينة ممبسة من يد البرتغاليين وبذلك بدأت مرحلة اعادة وتعزيز الأثر العربى فى المنطقة • وفى عام ١٧٢٧ استعاد البرتغاليون مدينة ممبسة وبعض المدن الأخرى • غير أن هذا النصر لم يدم أكثر من عامين تمكن السواحيليون والعمانيون فى نهايتهما من اعادة المدن الساحلية • ومن ذلك الحين تقلص النفوذ البرتغالى وتركز فى منطقة موزمبيق حيث تمت لهم السيطرة التامة عليها لفترة طويلة امتدت حتى سنين قريبة • من هنا يتضح السبب الأساسى فى اختلاف ثقافة منطقة موزمبيق بالمقارنة مع الأجزاء السواحيلية الأخرى

كما شهد القرن الثامن عشر الميلادى مرحلة تأصيل السيطرة العمانية وتعزيز الاثر العربى فى مناطق مختلفة من شرق افريقيا • وفى خلال القرن الثامن عشر أصبحت جزيرة زنجبار — بالاضافة لمدينة ممبسه — مركزا هاما للنفوذ العربى وللثقافة العربية والاسلامية • ولقد اتخذ هذا الدور شكلا رسميا ودعما جديدا فى القرن التاسع عشر عندما نقل السيد سعيد بن سلطان عاصمة حكومته من مسقط الى زنجبار فى عام ١٨٤٠ • ومن زنجبار امتد النفوذ العمانى الى مدن كثيرة فى الساحل الشرقى الافريقى حيث مارسوا حكم وادارة أماكن متعددة بمعاونة بعض

C. S. Nicholls (1971), p. 21.

السكان المحليين من السواحيليين • وقد شهدت فترة الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر انتشار العنصر العربى والسواحيلى الى داخل القارة • وفى السبعينات من القرن التاسع عشر بلغ العرب والسواحيليون قمة نفوذهم السياسى والاقتصادى والثقافى فى المنطقة • وفى تلك الفترة كونوا مايمكن أن يسمى « امبراطورية شرق ووسط افريقيا » وقد امتدت هذه الامبراطورية — التى اتخذت من زنجبار مركزا لها — حتى شملت أجزاء من يوغندا وتنزانيا وكينيا وزائير « الكنغو »[١٢] •

ومنذ أواخر السبعينات وبداية الثمانيات بدأت مرحلة جديدة شهدت تقلص النفوذ العربى والسواحيلى فى شرق افريقيا — فقد وضعت تلك المنطقة فى يد الاستعمار الأوربى والوصاية البريطانية •

الأثر العربى فى الادارة والتعليم

فى الجزء التالى نتحدث عن بعض الأدوار الرئيسية التى لعبها العرب فى حياة سكان الساحل الشرقى الافريقى وعن بعض انعكاسات وآثار هذه الأدوار فى الثقافة السواحيلية • والأدوار التى لعبها العرب فى حياة الأفارقة تفوق مجال هذا البحث المقتضب • ولقد نوهنا لبعض هذه الأدوار فى مقدمة البحث وسوف نتطرق الى بعضها فى مجالات مختلفة مثل دور العرب فى التجارة والاقتصاد الافريقى • فى هذا الجزء نتحدث على سبيل المثال عن علاقتين هامتين هما :

(أ) دور العرب وأثرهم فى الادارة

(ب) دور العرب وأثرهم فى التعليم

دور العرب وأثرهم فى الادارة :

فى هذا الجزء عن دور العرب فى الادارة والاثار المترتبة على ذلك نقصر حديثنا على الأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى ونركز على

---

12) A. I. Salim (1973), p. 34.

الفترة الحديثة من القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن العشرين • ويدفعنا الى اختيار هذه المرحلة الأخيرة وضوح الرؤيا بسبب وفرة المصادر والدراسات الموثوق فى صحتها •

فى تلك المراحل نجد أن السلطان يتربع فى قمة الجهاز الادارى السواحيلى • ويلى السلطان فى النظام الادارى منصب الجومبى Jumbe وهو أشبه بالناظر أو بشيخ عموم المنطقة • وعادة مايستمد سلطته من نسبه ووضع أسرته المميز • وهذا المنصب يكاد أن يكون منصبا وراثيا ، ولكن رغم ذلك لابد من اتفاق الأطراف المختلفة على الشخص المرشح لهذا المنصب • ومن أهم وظائف هذا المنصب فض النزاع بين الأطراف المختلفة والتوسط بين المتنازعين وحفظ الأمن • ونجد بعد وظيفة الجومبى Jumbe وظائف أخرى أقل أهمية هى وظيفة الشيخ Shehe والوزير Waziri والأمير Amiri ويجتمع هؤلاء فى مجلس يرأسه الجومبى Jumbe الذى تشبه وظيفته وظيفة شيخ عموم الأقسام والقبائل (١٣) • ويجد أصحاب هذه المناصب من سلطة الجومبى Jumbe حتى لاتصبح سلطة مطلقة ويساعدونه على الوصول الى القرار الحكيم العادل • كما يعملون كمجلس استشارى يسير على هدى العرف والشريعة الاسلامية •

من الحديث السابق عن النظام الادارى بين السواحيليين يتضح الأثر العربى واضحا • يظهر هذا الأثر فى طبيعة التكوين الادارى الذى يتمثل فى مجلس من الاعيان والشيوخ يرأسه شخص يتحدر من أسرة مرموقة المكانة ويتفق على رئاسته • ويعمل هذا المجلس على أساس الشورى وتبادل الرأى • ويبدو أن هذا المجلس يشبه المجالس القبلية العربية من حيث التكوين المشار اليه ومن حيث وظيفة فض النزاع كمرتكز هام لعمل هذا المجلس ، ومن حيث اعتماده على العرف والتشريع

---

13) C. S. Nicholls (1971), PP. 38 .. 41

الاسلامى • كما ينعكس الأثر العربى أيضا فى أسماء المناصب المختلفة مثل كلمة ديوانى Diwani (وهى كلمة مرادفة لكلمة جومبى Jumbe وكلمة Shehe وكلمة Waziri وكلمة amiri

وفى بداية مرحلة الوصاية والاستعمار الأوربى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين اعتمد المستعمر على العرب فى الادارة وفى الوظائف الأخرى المرتبطة بها كالقضاء والجيش • ولقد ظهر هذا الدور جليا فى فترة الشركة البريطانية للهند وشرق افريقيا IBEA Co. وفى الفترات التى اعقبت تلك المرحلة • وفى كثير من الأحيان اعترف البريطانيون بالدور الذى يلعبه العرب فى حكم وادارة تلك البلاد ، وبأن لا بديل للعرب فى تلك المرحلة • وقد أغرت الشركة البريطانية للهند وشرق افريقيا العرب بالمرتبات الكبيرة والهدايا القيمة حتى تكسبهم وتضمن انضمامهم اليها • ونجد أن بعض القادة البريطانيين مثل هاردنق Hardinge يتحدث عن هذا الدور بوضوح تام حين يقول :

« العنصر العربى والمستعرب عنصر هام • فعلى هذا العنصر — وعليه وحده — تعتمد الادارة والقضاء على مدهما بالموظفين المحليين • فالعرب والطبقة العليا من السواحيليين هم وحدهم الذين يستطيعون القراءة ويلمون بشئون السياسة والقضاء والادارة • واجتماع عوامل مختلفة منها الدين واللغة والمصاهرة تجعل العربى مؤثرا فى سكان الساحل بصورة لا تتاح للاوربى الغريب • وحتى فى داخل القارة نجدهم أكثر اطمئنانا ، فهم أفارقة بينما الأوربى غريب »(١٤) •

فحديث هاردنق Hardinge خير اعتراف بدور العرب فى ادارة وحكم تلك المناطق حتى فى عهد كان من المفروض أن تكون سلطتهم

---

(١٤) راجع .

A. I. Salim (1973), p. 77.

فيه قد تقلصت • وما ورد فى حديثه عن أن الدور الذى يلعبه العرب ــ الأفارقة فى تلك المنطقة ، والذى يعجز عنه سواهم ، يتفق مع المرتكز الذى اعتمدنا عليه فى هذه الدراسة ، والذى ينطلق من مفهوم الازدواجية العرقية والثقافية لهذه المجموعة والتفاعل التام بين مكوناتها •

وتدل الاشارات المختلفة على أن الحكم كان يتم بالتعاون بين العرب والسواحيليين والمجموعات المحلية الأخرى • فممثلا فى بداية الحكم العمانى ترك العمانيون الرؤساء المحليين فى مناصبهم ولم يحدوا من سلطاتهم • ومما يؤيد ذلك أن العمانيين لم يحتاجوا للدعم الحربى المتزايد للاحتفاظ بموقعهم[١٥] • وكذلك استفاد العرب من النظام المحلى والاعراف الى حد كبير • والمجالس الادارية التى تحدثنا عنها أفسحت المجال للمجموعات السواحيلية المختلفة للاشتراك فى الحكم •

ولكن يبدو أن علاقة الحكام البريطانيين بالعنصر العربى واعتمادهم عليه فى الادارة كانت علاقة مرحلية • فعندما توطدت أقدامهم فى تلك المناطق وولجوا الى مداخل القارة والى نفسيات أهلها ، ما عادوا فى حاجة للدور الذى يلعبه العربى والسواحيلى ويعجز عنه كل من سواه • وكانت النكسة الكبرى عندما استعاض البريطانيون بالهندى بديلا عن العربى فى ادارة شرق افريقيا •

ولعل التعليم الذى كان متاحا للعرب وللسواحيليين عجل بذلك التغيير لأنه لم يكن قادرا على مد الحكام الجدد بالادارى الذى يتطلبه الوضع •

دور العرب وأثرهم فى التعليم :

لقد ارتبطت المراحل الأولى لدخول التعليم فى أواسط سكان الساحل الشرقى الأفريقى بالاسلام • ولذلك نجد أن التعليم قد اتبع نهجا اسلاميا واحدا فى طريقته وفى مضمونه مظهر ذلك فى زنجبار

---

15) C. S. Nicholls (1971), p. 43.

وفى لامو وكلوه وسواحل كينيا كما يظهر فى الصومال وفى بعض أجزاء من أثيوبيا وكما هو مفهوم فى العالم الاسلامى العلم من المقومات الأساسية لشخصية المسلم وطبعه واجب على كل مسلم ومسلمة ، وعن طريقه تتم قراءة القرآن الكريم ومعرفة معانية وأسراره وبالنسبة لكثير من المسلمين كان — ومازال •

« العلم » يعنى العلوم الدينية ومايرتبط بها من فقه وصرف وتفسير ••• الخ • غير أن العرب لعبوا دورا رئيسيا فى نشر التعليم فى الساحل الشرقى الأفريقى فعلى أيديهم تم تعليم الكثير من الأفارقة وعلى أيدى تلاميذهم من المسلمين والمستعمرين تمت مواصلة مسيرة التعليم وبالرغم من أن الطابع الاسلامى قد هيمن على التعليم فى شرق افريقيا الا أن العرب هم الذين نشروا هذا التعليم واللغة العربية كانت هى وسيلته الرئيسية لذلك نجد أن المؤثرات الثقافية العربية تنتشر فى المنطقة — ومنذ أمد بعيد — عن طريق المعلم العربى — وقد كان لارتباط التعليم فى الساحل الشرقى الأفريقى نتائج ايجابية وأخرى سلبية •

ولعل من أهم نتائجه الايجابية أن أزال الأمية أولا ، وربط المجموعات الافريقية المختلفة ببعضها ثانيا ، ثم مهد الطريق لارتباط هذه المجموعات بالعالم العربى والاسلامى ثالثا وسنلاحظ فيما بعد أن المجموعات الافريقية المسلمة أصبحت تعبر عن رغبتها فى الارتباط بالعنصر العربى فى صور مختلفة تنعكس فى تراثها •

ومن أهم سلبيات ارتباط التعليم بالاسلام فى شرق أفريقيا أن أصبح المسلم الأفريقى جيدا لهذا النوع من التعليم بتقبل مايقدم له برضى وامتنان ويرفض كل ماسواه • فلقد وقر فى أذهان العامه (وبعض الخاصة) أن العلم هو العلوم الدينية ومايرتبط بها • وعليه فالمراحل التى مر بها التعليم فى العالم العربى الاسلامى والتى تجاوزها منذ

قرون عديدة ، مرت بها بعض الأجزاء الافريقية المسلمة فى النصف الأول من هـذا القـرن •

وماتزال تخضـع لها بعض الأجزاء الأخرى • وسنرى بعد قليل كيف أدى ذلك لاضعاف النفوذ العربى فى تلك المنطقة • ولكن فى أول الأمر يعطى صورة للطريقة التى يتم بها هذا التعليم وللمدرسة التـى يتمما فيها تدريس الطلاب القراءة والكتابة والتى يتم فيها حفظ القرآن • والواضح من ذلك أن هذه المدرسة هى « الخلوة » المعروفة فى أنحـاء العالم الاسلامى والتى تعرف فى الساحل الشرقى الأفريقى بأسـماء مختلفة • ونأخذ مثالنا من الصومال •

الدكس « خلوة القرآن » :

وكلمة (الدكس) فى اللغة الصومالية معناها « المكان المحاط بسور » فعادة يعين شيخ القبيلة أحد أفراد القبيلة من حفظة القرآن ليكـون معلما وبعد هذا يجتمع رجال القبيلة لاختيار المكان • الذى تقام فيـه « الدكس » •

وعادة يكون وسط المنطقة ـ بحيث يمكن الجميع أفراد القبيـلة الوصول اليه • كما يكون تحت شجرة ظليلة يقام حولها سور قوى من الخشب أو من فروع الأشجار • ومن هنا جاءت هـذه التسمية •

وبعد تجهيز المكان يجمع الطلاب من أعمار متقاربة (عادة من ٥ ـ ٧ سنين) ومن الجنسين • وعندئذ يدفع أهل كل طفل شاه للمعلم • وتسمى هذه الشاه « قريش » أى « حق الانتساب » •

وبعد ذلك يبدأ التعليم وتدفع شاه عند نهاية كل جزء من القرآن •

فى الفترة الأولى يبدأ الطلاب فى تعلم اللغة العربية ، وتسـير هذه العملية على مراحل محددة وفق تدرج مخطط ومنظم •

أولا يبدأ المعلم بتعليم الحروف • وتكتب هذه الحروف بطـريقة صومالية استحدثها شيخ صومالى هو الشيخ يوسف الكوفى معتمدا على الحروف العربية وطريقة كتابتها • وثانيا ينتقل المدرس الى تعليـم نظام النقط •• وثالثا ينتقل الى تعليم الحركات • وجميع هـذه المراحل تتسم بالترديد والأداء الجماعى الذى يقوم به الطلاب • هذا بالاضافة الى الكتابة على اللوح الخشبى المعروف فى الكتاب وفى الخلوه فى مختلف بقاع العالم الاسلامى • بعد أن يجيد المتعلم كتابة الحـروف ونطقها مع شكلها بالضمة والكسرة والفتحة والسكون تحتفل أسرة التلميذ بذبح الذبائح وتوزيع لحومها على الطلبة والمساكين •

وبعد ذلك يتفرغ الطالب لتعليم القرآن بدءا بالصور القصار •

وكلما انتهى من جزء تلته الولائم التى تسحذ همم أقرانه • ولكن الاحتفال الأكبر يكون يوم أن يختم أحد الطلاب القرآن الكريم • وحتى فى بعض أجزاء من أثيوبيا كمنطقة هرد ، نجد نفس هذه العملية تتـم بصورة مشابهة كما تجد الولائم والاحتفالات التـى تعقب « ختمه » القـرآن •

وأحيانا نجد مايشبه عادات الزواج فى هذه الاحتفـالات • ففى بعض الأماكن يزف الطالب الذى اختتم القرآن على ظهر حصان الى مكان اقامة معلمه • ويتبعه أقرانه وأصدقاؤه وبعض المواطنين من قريته فى هذا الموكب • وأحيانا يرتدى الطالب الزى العربى ويطوف على منازل أهله فى زهو واعزاز وسط تهليل أقرانه[١٦] • ولاشك أن كل هذا البهرج والاحتفال جزء هام من العملية التعليمية •

---

16) Haile C. Dagne (1971), p. 6.

هذه الصورة الوصفية « للدكس » كانت تمارس منذ أزمان بعيدة ومازالت تمارس فى الصومال[١٧] .

ونجد صورا مشابهة لهذه العملية والطريقة التى وصفناها فى أماكن مختلفة من الساحل الشلاقى الأفريقى . ويصل التشابه أحيانا حد التطابق .

وكما ذكرت من قبل فقد كان لهذا النوع من التعليم الدينى سلبياته التى لايمكن اغفالها . وقد ارتبطت هذه السلبيات بأمرين هما :

(أ) الطريقة التى كان (ومازال) يتم بها هذا النوع من التعليم .

(ب) نظرة المجتمع الاسلامى فى الشرق الافريقى لهذا النوع من التعليم .

وفيما يتعلق بعيوب الطريقة المتبعة فى ذلك التعليم ، نجد أن السواد الأعظم من عامة الشعب يحفظ بعض السور من القرآن الكريم ويستطيع قراءة وكتابة الحروف العربية وقد يستطيع قراءة القرآن . ولكنه يعجز عن الخروج عن دائرة القرآن الكريم . فهو لايستطيع أن يكتب باللغة العربية فى أمور مختلفة تتعلق بشتى شئون الحياة اليومية . وهو أيضا لايستطيع أن يستعمل اللغة العربية فى المخاطبة اليومية . هذا ماكان من أمر عامة الشعب ، أما بالنسبة للصفوة من المتعلمين تعليما عربيا واسلاميا مكثفا ، فالأمر يختلف . فقد حذف بعضهم اللغة العربية وتمكنوا من نظم الشعر الرصين بهما ، كما سيأتى توضيحه . وأما فيما يتعلق بعامة الناس من المنتفعين بهذا النوع من التعليم ، فقد ظل ارتباطهم بالعالم العربى ، بل وبالمعرفة الانسانية فى اطار ضيق .

---

(١٧) اشكر الاخ محمد حاج حسن الطالب بمعهد الخرطوم لاعداد معلمى اللغة العربية لغير الناطقين بها وهو صومالى ملم بقضايا التعليم فى بلاده .

وذلك بسبب الطريقة المستعملة فى التعليم والتى لم تتطور ولم تبنى على ما اكتسبه الطالب من معرفة فى مجال معين — مجال الحروف والحركات والنصوص الدينية — بصورة تمكنه من ارتياد آفاق جديدة من التراث العربى والمعرفة الانسانية • ونتج عن تلك الطريقة أننا نجد شخصا صوماليا لاتعرف أن تصفه بأنه أمى متعلم • فهو يحفظ « نهج البردى » (وبانت سعاد) عن ظهر قلب ، ويستطيع أن يقرأ القرآن من المصحف ، ويكتب الحروف العربية بصورة متقنة • ولكن اذا تحدثت معه باللغة العربية وسألته أن يدلك على الطريق ، لا يستطيع أن يرد عليك وقد لايفهمك •

ويبدو أن التعليم فى تلك المناطق قد كان على مستويين :

مستوى لعامة الشعب انتج هذا النوع من المواطن المسلم الذى ظل حبيسا لمستوى معين من المعرفة الاسلامية لايستطيع تجاوزه • ومستوى آخر تمتعت به الصفوة وشمل العلوم الاسلامية والاداب والفلك والتاريخ ••• الخ •

وهذا هو النوع الذى خلق الادارى والقاضى والمثقف الذى تحدثنا عنه فى الجزء السابق عن دور العرب فى الادارة والذى شهد بفضله ودوره المستعمر عند دخوله فى تلك المناطق •

أما العيب الثانى فهو يرتبط بالنظرة المقدسة التى اكتسبهما التعليم الاسلامى فى الساحل الشرقى الافريقى • وكان من نتائج هذه النظرة التقديسية لذلك النوع من التعليم أن انصرف المسلمون عن كل ماسواه واعتبروه ابتعادا عن الحق وسعيا وراء كسب دنيوى زائف ولقد أدى ذلك الى تقوقعهم داخل هذا الاطار الضيق الذى اختاروه لأنفسهم وقاطعوا التعليم الغربى الذى عرف طريقه الى تلك المنطقة فى عهد الاستعمار • وزاد من توجسهم ارتباط هذا النوع الجديد من التعليم بالمستعمر المسيحى • فاعتبروا المدارس الجديدة التى فتحت فى ظل

هذا النظام الجديد كأنها امتداد للمدارس التبشيرية المسيحية • وهناك أدلة واحصاءات كثيرة تدل على مقاطعة العرب للتعليم الغربى فى شرق افريقيا • ماذا أخذنا على سبيل المثال مدرسة تانقا التى افتتحت فى عام ١٨٩٤ ، نجد أن عدد التلاميذ بلغ فى عام ١٩١٢ أربعمائة تلميذا • ولم يكن بين هؤلاء التلاميذ ولا حتى عربى واحد[١٨] •

فلقد قاطع العرب هذه المدرسة وطالبوا أن يكون تدريس العلوم باللغة العربية بدلا عن اللغة السواحيلية ، وان تخصص السنة الأولى لدراسة اللغة العربية والقرآن • لاشك أن بعض السياسات الاستعمارية قد عمدت الى اضعاف العنصر الاسلامى فى شرق افريقيا ولا شك أن مصدر سعادة بهذه الدوائر الاستعمارية أن ترى المسلمين يبادرون بمقاطعة التعليم الغربى • فقد رأى بعض الاداريين المستعمرين ان لا داعى للاكثار فى نشر التعليم الغربى بين السكان المحليين ، لأن فى انتشار هذا النوع من التعليم بين الأهالى تقليل لنفوذ وسطوة المستعمر وازدياد للوعى السياسى بين السكان المحليين • وعليه فلقد كان يسعد الادارة الاستعمارية أن يظل الجاهل فى جهله[١٩] •

وبالرغم من ذلك نجد أن الأفارقة يقبلون على التعليم الغربى • بمناهجه الحديثة وينهلون منه ما أقلنهم ذلك •

ولكن مسيرة الزمن لاتتوقف • فالادارة البريطانية ترى أن التعليم الاسلامى بصورته التى وصفناها لايقدر على مدها بالمعاون والموظف الذى تريده والذى يستطيع أن يساير متطلبات العصر • ويبدأ الاداريون فى السخط عن أداء معاونيهم من العرب والسواحيليين رغم اعتمادهم على هذا العنصر واشادتهم به فى المرحلة الأولى كما رأينا • فتلك مرحلة ولت وانقضت ، وللمرحلة الجديدة متطلباتها التى لايقدر عليهما

---

18) A. I. Salim (1973), p. 149.

19) Ibid, p. 150.

العربى والسواحيلى المسلم ، لأن تعليمه لايؤهله لذلك • وفى ذلك الاثناء يستمر العرب والسواحيليون فى مقاطعتهم للتعليم الغربى ، وتستمر الادارة البريطانية فى الاستغناء عن العنصر العربى واستبداله بالعنصر الهندى ــ بينما تواصل العناصر الافريقية الأخرى مسيرتها تعب من مناهل التعليم الغربى وتهىء ابناءها لأدوار قيادية فى شتى مجالات الحياة • وينتج عن ذلك أن ينزوى العنصر العربى الى ركن قصى وينحدر الى وضع اجتماعى وضيع لا نرضاه له • وبذلك يتقلص النفوذ العربى فى المنطقة بينما تظهر قيادات جديدةتفرض نفسهما على الساحة وتهيمن على السلطة ومقاليد الأمور •

المؤثرات والروابط اللغوية :

الحديث عن الروابط اللغوية يقودنا مرة أخرى الى المسألة السامية التى تحدثنا عنها بأيجاز فى الجزء السابق • فأسرة اللغات السامية تضم اللغة العربية والعديد من اللغات التى انتشرت فى الجزيرة العربية فى عصور مختلفة ، كما تضم اللغة الاثيوبية واللغات المتفرعة عنها • وهذه الأسرة تنتمى الى أسرة أخرى أكبر منها وهى أسرة اللغات السامية ــ الحامية التى تضم اللغات السامية والكوشية والمصرية (القديمة) والبربرية والشادية •

ويمكن توضيح فروع هذه الأسرة بالطريقة التالية :

أسرة اللغات السامية الحامية

(الافرو ــ آسيوية)

السامية | الكوشية | المصرية (القديمة) | البربرية | الشادية

وتجدر الاشارة هنا الى أن الاسم الاخر لهذه الأسرة ــ أى (الأسرة الأفرو آسيوية) هو الاسم الذى يجد قبولا أكثر فى الدوائر العلمية فى الآونة الأخيرة • ومن مجرد هذه التسمية الأخيرة يتضح أن هذه المجموعة عنصر من عناصر الربط والالتقاء اللغوى والثقافى بين القارة الافريقية والوطن العربى • كما يجدر بنا كذلك ان نربط حديثنا عن هذه المجموعة وماكان من أمر تسميتها (الافرو آسيوية) بما ذكرناه من قبل فى المقدمة معتمدين على آراء بطرس غالى وعلى مزروعى ــ من أنه يصعب وصف العرب بأنهم أفارقة أو آسيويون • وذكرنا ان الحديث عن العرب والأفارقة وكأنهم كيانين مختلفين يدخلنا فى مغالطة ومناقضة عرقية وجغرافية وسكانية • والواضح أن المخرج يكمن فى اعتبار العرب مجموعة افرو آسيوية •

والتقسيمات اللغوية التى توصل اليها علماء اللغات تؤكد نفس الرأى وتوضح أن اللغة العربية بحكم انتمائها لأسرة اللغات السامية تدخل تحت المجموعة الافرو آسيوية والتى تسمى أيضا المجموعة السامية ــ الحامية • فاللغة العربية اذا لغة أفرو آسيوية • هذا مانوصل اليه علماء اللغات بعد دراسة النظم الصوتية والتركيبية (البنيوية) للغة العربية واخضاعها للمقارنة باللغات الافريقية المنضمة تحت لواء المجموعة المشار اليها •

واذا بحثنا فى أمور الأسرة السامية (التى تنتمى الى المجموعة الافرو آسيوية) وهى التى تهمنا هنا ، نجد أنها تضم اللغات التالية :

١ ــ البابلية (أو الاشورية) •

٢ ــ العبرية •

٣ ــ العربية الجنوبية (وأحيانا تسمى الحميرية أو السبأية)

٤ ــ الآرامية

٥ ــ الفينيقيــة

٦ ــ الاثيوبيــة

٧ ــ العربية (فى صورتها المعروفة لدينا والتى انتشرت فى آفاق العــالم)

الأسرة الســـامية

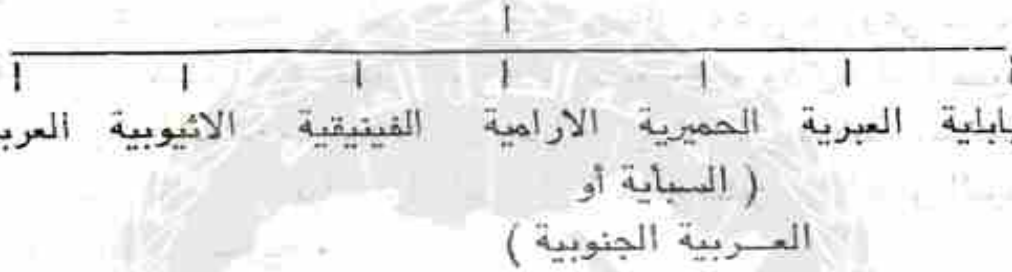

ويشير المؤرخون وعلماء اللغات الى أن النقوش والوثائق المتاحة لنا تدل على ان اللغة البابلية (أو الاشورية) هى أقدم اللغات السامية تليها العبرية فالحميرية فالارامية فالفينيقية ثم الاثيوبية فالعربية • ومعنى ذلك ان اللغة العربية (فى صورتها الحديثة المعروفة لدينا) هى آخر وأصغر لغات المجموعة السامية • غير ان الدراسات تشير أيضــا الى أنها أقرب هذه اللغات جميعها الى اللغة السامية الام[٢٠] •

وتوضح المقارنات اللغوية ان اللغات الاثيوبية السامية تشبه ــ الى حد كبير ــ العربية الجنوبية فى القواعد والنظم المختلفة • ولعــل العربية الجنوبية ، وهى ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد ، قد تركت آثارها فى لغات الساحل الشرقى الافريقى ممثلا فى اللغات الســـامية الاثيوبية • ولا عجب فى ذلك فلقد رأينا عمق الصلات بين الجنوب العربى والشرق الافريقى •

ويلزم أن نوضح هنا أن « الاثيوبية » (ومن الأحرى أن نقــول

20) R. A. Nicholson (1969), XVI.

اللغات السامية الاثيوبية) ليست لغة واحدة ترتبط بأثيوبيا وبحدودها المعروفة لدينا حاليا • بل هى مجموعة لغات تمتد فى قطاع اشمل وتضم اللغات التالية :

جعز (Gez) تقرى (Tigre) تقرينيا (Tigrinya)

الامهرية (Amharic) هرارى (Harari) أرقوبه (Argobba)

قافات (Gafat) وقراقى (Gurage)

فى الجزء التالى نوضح بعض أوجه الشبه واحتمالات الأثر العربى فى المجالات اللغوية المختلفة فى هذه اللغات •

وفى مجال الأصوات يقوى هذا الأثر بالنسبة لبعض اللغات الاثيوبية أكثر من غيرها • ففى لغة جعز مثلا نجد بعض الأصوات العربية المميزة كالعين والحاء والخاء وفى اللغات الاثيوبية — كما فى اللغة العربية — يندر التقاء الساكنين لا سيما عندما يقعان فى أول الكلمة • وبجانب التشابه فى المجال الصوتى وفى القاموس ، نجد تشابها يقرب الى التطابق فى القواعد والتراكيب • ومن ذلك مايوضح بجلاء قوة الأثر العربى والأثر السامى عامة • يظهر ذلك فى الضمائر وفى طريقة التأنيث والاستفهام والجمع وغيرها مما سيأتى توضيحه (*) •

فاذا بدأنا بالتأنيث نجد أن العديد من اللغات الاثيوبية السامية الأصل تستعمل تاء التأنيث (كما هو الحال فى اللغة العربية) لكى تميز بين المذكر والمؤنث •

فى لغة جعز :

كلمة Sänay (معناها جميل) وكلمة

Sänay-t (معناها جميلة) •

(*) لقد اعتمدت فى هذا الجزء — وعلى وجه الخصوص فى الجزء الذى يوضح أوجه الشبه بين الضمائر — على بحث W. Lesbau المشار اليه ضمن مراجع البحث •

وفى لغة تقرينيا :

gidiir (معناها كبير)

gidiir-it, (معناها كبيرة)

وفى الامهـرية :

dägg (معناها حسن)

dägg-it (معناها حسنة)

وبالنسبة لطريقة الجمع نجد أن العديد من اللغات الاثيوبية المشار اليها تستعمل ما يشبه جمع التكسير وجمع التأنيث المستعملة فى اللغـة العربية ، غير اننا نلاحظ أن هذه الاستعمالات قد تختلف عن رصيفاتها فى اللغة العربية بعض الشىء • نجد أن فرس تجمع على أفراس وبغـل تجمع على أبغال فى لغة التقرينيا • كما نجد أن باب تجمع على بابات وختم تجمع على ختموتات فى لغة التقرى •

وبالنسبة لطريقة الاستفهام فاننا نجد أن أغلب اللغات الاثيوبيـة ذات الأصل السامى تستعمل كلمة « من » وعلى ذلك فنظام النفى فى هذه اللغات يكاد يتطابق مع نظام النفى فى اللغة العربية •

ولعل الأثر العربى يظهر فى مجال الضـمائر أكثر من غيره من المجالات ، فنجد أن العديد من اللغات الاثيوبية تستعمل ضمير المتكلم المفرد (أنا) وضمير المخاطب المفرد للمذكر والمؤنث (أنت وأنت) وضمير المتكلمين (نحن) وضمير المخاطب للمذكر والمؤنث الجمع (أنتم وأنتن)

وفى الجدول التوضيحى التالى تبين طريقة اسـتعمال بـعض الضمائر فى عدد من اللغات الاثيوبية وذلك حتى يتضح وجه الشـبه الذى يصل حد التطابق والذى يدعونا الى أن نسلم بتأثر هذه اللغـات باللغة العربية •

الضمائر	اللغات			
	لغة جعز Ge's	لغة التقرى Tigre	لغة التقرينيا Tigrinya	اللغة الامهرية Amharic
المتكلم المفرد (أنا)	'anä	'ana	'ane	ane
المخاطب المفرد المذكر (أنت)	antä	anta		antä
المخاطب المفرد المؤنث (أنتِ)	'anti	'anti		anc(i)
ضمير المتكلمين (نحن)	nahna	hana	nahna	
المخاطب لجمع المذكر (أنتم)	'antamu	antum		
المخاطب لجمع المؤنث (أنتن)	'antan	'antana		

أما بالنسبة للاثر العربى والأثر السامى عامة فى مجال الكلمات والألفاظ ، فان قواميس اللغات الاثيوبية تزخر بالكلمات العربية التى يصعب حصرها نسبة لكثرتها • فالكلمات العربية تنتشر فى مجالات

الاستعمال المختلفة بالنسبة للعديد من لغات شرق افريقيا • ولقد ركزنا هنا على اللغات التى تنتشر فى أثيوبيا ومنطقة القرن الافريقى والشاطىء الغربى للبحر الأحمر •

وقد يرى البعض أن المؤثرات العربية التى تتضح فى بعض اللغات الاثيوبية والتى حاولنا ردها للغة العربية هى مجرد أوجه شبه بين اللغة العربية وهذه اللغات الاثيوبية ولذلك يجب تفسيرها على أساس أن اللغة العربية وهذه اللغات الاثيوبية استقت العناصر المتشابهة التى أشرنا اليها من مصدر واحد وهو اللغة السامية الأم أى الـ Semetic archtype ويظهر مما سلف أننا نرجح أن هذه العناصر المتشابهة عبارة عن انعكاس للمؤثرات العربية وذلك للأسباب التالية :

أولا : قد أشار الكثير من الباحثين الى حقيقة أن اللغة العربية أقرب اللغات للغة السامية الأم archtype التى تفرعت عنها جميع اللغات السامية • فهى تحتفظ بالكثير من العناصر والخصائص اللغوية التى تربطها باللغة الأم أكثر من غيرها• فاللغة العربية خير ممثل للاسرة السامية •

ثانيا : كان للعرب الدور الرئيسى فى نشر خصائص الثقافة السامية لاسيما بعد انتشار الاسلام • وقد ذكر هتى Hitti على سبيل المثال أن العرب قد نشروا اللغة العربية والثقافة السامية منذ فجر الاسلام وحتى الوقت الحالى فى رقعة تفوق بكثير الرقعة التى امتدت فيها كل المجموعات والامبراطوريات السامية الأخرى مجتمعة[٢١] فالعرب اذا هم خير من يمثل المجموعة السامية وعن طريقهم تم نشر الثقافة السامية بما فى ذلك العناصر اللغوية •

ثالثا : الوثائق والدراسات التاريخية المتاحة لنا تدلنا على الوشائج والروابط الوثيقة بين شرق افريقيا والعرب ، لاسيما عرب الجنوب •

---

21) P. Hitti (1970), p. 8.

ومن يتابع بعض هذه الصلات التى تحدثنا عنها يشعر بأن صلة العرب بهذا الجزء من افريقيا كانت أقوى من صلة المجموعات السامية الأخرى بـــه •

لجميع هذه الأسباب يظهر جليا أن اللغة العربية لعبت دورا هاما فى التأثير على اللغات الاثيوبية ، وان العناصر المتشابهة التى لمســناها يمكن اعتبارها مؤثرات عربيـــة •

اللغة العربية فى شرق افريقيا :

الباحث فى أمر اللغة العربية فى شرق افريقيا يلاحظ أنها لعبت دورا هاما فى حياة الناس منذ قرون عديدة وهى مانزال نتمتع بهـــذا الدور الايجابى فى كثير من مناطق شرق افريقيا غير أن هذا الدور قد قوى وازداد فى بعض الأجزاء وضعف فى البعض الآخر •

وسنحاول فى هذا الجزء أن نتحدث عن وضـــــع اللغة العربية واستعمالاتها المختلفة فى بعض أقطار شرق افريقيا • ونرى أن اللغـــة العربية قد وجدت شتى مجالات الحياة فى شرق افريقيا ، فهى لغـــة عبادة ولغة تجارة ولغة أدب ولغة تربية ولغة المحاكم أحيانا • وبين بعض المجموعات نجد أنها اللغة الأولى (اللغة الأم) • وكما ذكـــرت فقد تعرض موقف اللغة العربية لشىء من الضعف فى بعض منـــاطق شرق افريقيا فى الاونة الأخيرة • وذلك بسبب ما لقيت من محاربة ابان تغلغل النفوذ الاستعمارى فى افريقيا •

ولاشك أن اللغة العربية (فى احدى صورها) قد دخلت الســـاحل الافريقى قبل الاسلام بكثير ومارست احدى وظائفها الهامة التى ارتبطت بها قبل الاسلام • وهى الاستعمال فى مجال التجارة • يحدثنا صاحب كتاب **(الدليل الملاحى للبحـــر** Periplus Maris Erythrean الاريترى) يعتقد أنه عاش فى القرن السادس قبل الميلاد عن الساحل

الشرقى الافريقى ويورد ضمن حديثه معلومات هامة عن وضع ووظيفة اللغة العربية فى تلك المنطقة منذ ذلك الأمد البعيد • فهو يعجب لكثرة السفن العربية فى تلك المنطقة ويتحدث عن اختلاط العرب وتزاوجهم مع القبائل الافريقية • « كما يتعوض لتعدد العناصر الوافدة على الساحل وتطلعها الى التعرف على اللغة العربية ومحاولة التحدث بها لما يتيح ذلك لهم من آفاق واسعة فى التعامل والتجارة[٢٢] • وينطبق هذا الوصف على واقع الحال فلقد لعب التاجر العربى دورا هاما فى الحياة اليومية فى مختلف أجزاء شرق افريقيا • فنجده يصل الى الاصقاع النائية ويجوب القطر ويختلط بالسكان المحليين ويتزوج منهم ، بل أحيانا تزوج أكثر من زوجة • فهو الذى مد السكان بالبضائع والسلع الضرورية وبمتطلبات الزينة وفى كثير من الأحيان يأخذ عنه السكان تعاليم الاسلام• ومايهمنا هنا أنه فى اختلاطه وتجواله هذا تمكن من نشر اللغة العربية • وتشهد بذلك قواميس العديد من لغات القرن الافريقى ، بل الساحل الشرقى الافريقى عامة • فنجد أن الكلمات المستعملة فى مجال التجارة عادة ماتكون كلمات عربية أو عربية الأصل • ومثال ذلك عبارة Dukkaana Araba فى لغة الكوتو (K'ottinynya) وعبارة Ya Arab Suk فى اللغة الامهرية (Amharic) لترمز لدكان التاجر العربى وكذلك كلمة Dukka بمعنى دكان فى اللغة السواحيلية (Swahili)

بعد هذا التقديم عن اللغة العربية فى شرق افريقيا وماكان من أمر تعلق الناس بها من قبل الاسلام ، دعنا نختار بعض أقطار الساحل الشرقى الافريقى ونعطى صورة موجزة عن وضع اللغة العربية فيها •

اللغة العربية فى الصومال :

فى جمهورية الصومال تستعمل اللغة العربية ويفهمها السكان (بدرجات متفاوتة) فى شتى مناطق القطر[٢٣] وتنتشر اللغة العربية

---

(٢٢) راجع جمال زكريا ، المصدر السابق •

23) Bernd Heine (1970), p. 119.

انتشارا واسعا فى المدن حيث يتكلمها السكان كلغة ثانية لاسيما بين الصفوة من المتعلمين والمثقفين • وترتبط اللغة العربية فى الصومال — كما هو متوقع — بالاسلام فى لغة العبادة ، فالنصوص والشعائر الدينية المرتبطة بالاسلام يتم التعبير عنها بواسطة اللغة العربية • كما ارتبطت هذه اللغة بالتعليم والأدب • ففى أغلب القرى نجد أن المعلمين يتحدثون اللغة العربية • ونجد كذلك أن سمعتهم ومركزهم الاجتماعى يرتبط بمدى اجادتهم واتقانهم للغة العربية • ولقد كانت وما زالت للغة العربية السيادة فى مجال الأدب والكتابة فى الصومال • ويتناقل عدد غير يسير من الصوماليين الاشعار والاراجيز العربية لا سيما المرتبط منها بالاسلام • وهناك العديد من الشعراء والصوماليين الذين يجيدون اللغة العربية (بجانب اللغة الصومالية) ويكتبون بها اشعارهم • ومن أهم هؤلاء السيد محمد عبد الله حسن المناضل والزعيم الدينى الصومالى • ومن بين هؤلاء أيضا عبد الله موسى الذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب • ولقد أورد B. W. Andrzejewski أمثلة من الشعر الصومالى المكتوب باللغة العربية[٢٤] • ومن بين هذا الشعر بعض قصائد للزعيم الدينى والسياسى محمد حسن عبد الله ولقد ارتبط هذا الشعر الذى يغلب عليه الطابع الدينى بالطريقة الصالحية (وهى فرع من الطريقة القادرية) واستعمل فى ازكاء الروح الوطنية والحماس الدينى • وعمل على تعبئة المواطنين للجهاد والنضال السياسى فى الصومال •

وبجانب المجالات التى ذكرناها نجد أن اللغة العربية (بجانب الايطالية والانجليزية) تستعمل فى مجال الادارة وتحرير المواثيق والمكاتبات المرتبطة بالتجارة وبالاتفاقات المختلفة • ولقد سبقت اللغة العربية اللغتين الأخريين (الايطالية والانجليزية) فى هذا الدور • ويحدثنا Bernd Heine ان الاتفاقيات الدفاعية التى أبرمها الأوربيون مع الصوماليين فى المراحل الأولى من اتصالهم ببعض كانت محررة

24) Andrzejewski (1964), pp. 161-166.

باللغة العربية • وقد تمتعت اللغة العربية فى الصومال بسمعة طيبة وتحمس غالبية الناس معبرين عن رغبتهم فى الارتباط بها لدرجة أن بعض المبالغين فى الحماس كانوا يرفضون محاولة كتابة اللغة الصومالية ، بينما كانوا ينادون بجعل اللغة العربية هى اللغة القومية للصومال وجعل اللغة الصومالية اللغة الثانية[٢٥] •

هذا وقد أثرت اللغة العربية أثرا واضحا فى اللغة الصومالية انعكس على قاموسها • ويذكر الاستاذ Andrzejewski من بين الكلمات العربية التى أصبحت جزءا من اللغة الصومالية الكلمات التالية :

صوم ــ كتاب ــ مركب ــ سلطان •

جريدة ــ صوت •••• الخ •

وكما انتشرت اللغة العربية فى الصومال كذلك انتشرت فى أريتريا حيث تظهر آثار الثقافة العربية فى عدة مجالات الحياة • غير أننا لا نتحدث بشىء من التفصيل عن وضع اللغة العربية فى أريتريا • فقد ذكرنا ما فيه الكفاية عن وضع اللغة العربية فى هذا الجزء الشمالى من الساحل الشرقى • بحديثنا عن أثيوبيا والصومال • وذلك لكى نعطى صورة عن وضع اللغة العربية فى الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى الافريقى • ولكى نوضح مدى انتشار اللغة العربية فى الساحل الشرقى الافريقى ، نورد هنا ماذكره Bernd Heine من أن اللغة العربية استعملت كلغة ثانية على امتداد طول الساحل الشرقى الافريقى من الشمال وحتى جنوب خط الاستواء[٣٦] •

---

25) Ibid, p. 39.

26) Bernd Heine (1970), pp. 36-37.

اللغة العربية واللغة السواحيلية :

لابد أن نذكر أن انتشـــار الثقافة العربية فى افريقيا لم يعد مقتصرا على اللغة العربية • فلقد دخلت اللغة العربية فى تفاعلات مختلفـــة مع اللغات المحلية تولدت منها لغات اسلامية وافرو عربية ارتبطت باللغة العربية ارتباطا وثيقا من حيث تكوينها وتطورها • وتحملت مسئولية نشر الثقافة العربية والاسلامية • ومن بين هذه اللغات لغة الهوسة والسواحيلى والسونغارى والكنورى •

وفى الساحل الشرقى لافريقيا لايمكن الحديث عن المؤثرات العربية فى المنطقة بمعزل عن تلك اللغات الهامة التى يمكن أن تعتبر مظهرا من مظاهر الثقافة العربية الاسلامية ووسيلة لنقل تلك الثقافة •

وبالرغم من أنه يصعب تحديد الزمان والمكان الذى نشأت فيه اللغة السواحيلية فى أول الأمر بشىء من الدقة ، الا أنه يمكن القول بأن اللغة السواحيلية قد نشأت أول الأمر فى الفترة مابين ٧٠٠ ــ ٨٠٠ ميلادية وفى المنطقة مابين ممبسه ومقديشيو • وقد أشار الى ذلك بعض الباحثين أمثال روش R. Reusch الا أنه هناك من بين الباحثين من ربط نشـــأتها بمنطقة محددة • ومن بين هؤلاء كروم Krum الذى ذكر أن أول منطقة تم التحدث فيها بهذه اللغة هى جزر لامو Lamu [٢٧]

ولقد ارتبط انتشار هذه اللغة الجديدة فى شرق افريقيا بالعمانيين والحضارمة واليمانيين الذين كان لهم نشاط بحرى وتجارى مرموق فى تلك المنطقة وكما ذكرنا آنفا • منذ القرن العاشر الميلادى كان العمانيون يجوبون الساحل الشرقى لافريقيا بسفنهم ويتاجرون فى بضـــائعهم ويحملون بعضها الى الهند والصين • وقد استقر بعضهم فى شرق افريقيا منذ ذلك الوقت واختلطوا بالسكان • وبذلك أسهموا فى نشر بعض عناصر اللغة والثقافة العربية عن طريق الاختلاط والمصاهرة والعمل التجارى •

---

27) Ibid.

وهناك ثلاثة آراء سائدة عن طريقة نشأة اللغة السواحيلية وجميع هذه الاراء تتفق فى أهمية العنصر العربى فى تكوين هذه اللغة • وبعضها تركز على أثر الجنوب العربى ومنطقة الخليج فى تكوين هذه اللغة الجديدة وتتلخص هذه الاراء فيما يلى :

(أ) نشأت اللغة السواحيلية نتيجة لاختلاط وتفاعل اللغة العربية باحدى لغات البانيو •

(ب) نشأت اللغة السواحيلية نتيجة لاختلاط وتفاعل اللغة العربية بعدة لهجات من لغة البانتو •

(ج) استعمل العرب الذين هاجروا من الجنوب والخليج العربى الى شرق افريقيا لغة السكان المحليين وغزوها بكلمات وعبارات عربية • ونتجت عن ذلك اللغة السواحيلية •

ويلاحظ أن جميع هذه الآراء تركز على انصهار وتفاعل العنصرين العربى والافريقى فى تكوين اللغة السواحيلية بصورة تمكننا من أن نصف السواحيلية بأنها لغة أفرو — عربية •

ويبدو أن اللغة السواحيلية قد تطورت منذ زمن بعيد واستعملت فى مجالات مختلفة بما فى ذلك استعمالها فى مجال الأدب المكتوب • ويذكر ان بطوطة انه عندما زار كلوه Kilwa فى عام ١٣٣٢ وجد من بين الشعراء المحليين من يكتب الشعر الغنائى والملاحم باللغة السواحيلية• ولاشك أن ذلك ينافى الرأى الذى روجه بعض الكتاب الغربيين الذين يركزون على أن كل الأدب المكتوبفى شرق افريقيا كان باللغة العربية فقط • ومثل هذا الرأى يستعدى الافارقة على العرب لأنه يجعل الأفارقة يبدون وكأن لا أدب ولا ثقافة لهم ، وان الاشعاع الثقافى الموجود فى المنطقة يرتبط أولا وأخيرا بالثقافة العربية ، وباللغة العربية على وجه الخصوص • وفى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس

عشر عندما وصل النفوذ البرتغالى الى شرق افريقيا كانت اللغة السواحيلية قد انتشرت حتى مقديشو فى شمال الساحل الشرقى •

ويبدو أن انتصارات القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر انعكست على الصعيد الثقافى خلال القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذى شهد انتشار اللغة السواحيلية بصورة كاسحة فى الساحل الافريقى وفى داخل القارة • فلقد انتشرت السواحيلية عبر طرق القوافل بفضل استعمال العرب لها كلغة تخاطب مشتركة Lingua franca مع القبائل المختلفة • ويذكر Bernd Heine اللغة السواحيلية انتشرت — بفضل العرب فاكتسبت رقعة شاسعة ومجالات استعمال جديدة • فقد وصلت فى الفترة مابين ١٨٦٠ — ١٨٩٠ حتى مملكة بوقاند (التى تقع فى يوغندا) حيث استعملت فى المحاكم[٣٨] وواصلت اللغة السواحيلية زحفها حتى وصلت الى اقليم كاتنقا فى زائير • من هنا يتضح أن اللغة السواحيلية قد امتدت على طول الساحل الشرقى حتى موزمبيق جنوبا ، وفى داخل القارة حتى كاتنقا غربا • كما استعملت فى مجالات مختلفةكلغة أولى أو لغة تخاطبمشتركة • ومن هذه المجالات استعمالها فى التجارة والقضاء والأدب والتعليم والادارة • وسنتحدث عن بعض هذه المجالات فى وقت لاحق •

أشير هنا الى ما ذكرناه من قبل عن أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد شهد مايمكن أن يسمى « امبراطورية شرق ووسط افريقيا » التى اتخذت من زنجبار عاصمة ومركزا لها وامتدت حتى اقليم كاتنقا فى زائير • والواضح أن هذه « الامبراطورية » قد اتخذت اللغة السواحيلية لغة لها بجانب اللغة العربية التى كانت بمثابة لغة البلاط[٣٩] • وحرى بنا أن نقف هنا عند بعض الحقائق الهامة • فحكام

---

28) Ibid, p. 86.

29) C. S. Nicholls (1971), p. 71.

هذه « الامبراطورية » كانوا عربا من عمان يدينون بالاسلام ويتحدثون العربية • فمن البديهى أنهم صبغوا عاصمتهم باللون العربى الاسلامى وان تلك العاصمة ذات الطابع العربى الاسلامى صارت مركز اشعاع ثقافى وادارى وسياسى أثر فى أركان هذه « الامبراطورية » وليس صدفة أن نجد أن لهجة زنجبار Unguja (أو اللهجات المتفرعة عنها مثل اذ ngwana تحقق انتشارا واسعا يغطى معظم حدود « امبراطورية شرق ووسط افريقيا » ، وتصبح الأساس بالنسبة للغة السواحيلية المكتوبة وليس صدفة كذلك أن نجد ان المؤثرات العربية والاسلامية تبدو واضحة فى شتى مجالات الحياة ، فى الادارة والتعليم وفى الاقتصاد والثقافة •

أرى أن الحديث عن اللغة العربية وأثرها فى شرق افريقيا قد قادنا الى الحديث عن اللغة السواحيلية • ولاشك ان لهذا مايبرره فاللغة السواحيلية ثمرة من ثمار الاتصال العربى الافريقى • ويمكن أن توصف كما ذكرنا — بأنها لغة أفرو — عربية • وبجانب كونها احدى ثمار العلاقات العربية الافريقية ، وهى فى نفس الوقت كذلك أهم وسائل انتقال المؤثرات العربية •

اللغة السواحيلية والقاموس العربى :

وتتضح حقيقة ان السواحيلية لغة أفرو — عربية من طبيعة تكوينها الذى أشرنا اليه • وينعكس ذلك التكوين فى مجال المفردات والقاموس أكثر من غيره من المجالات الأخرى • وتختلف الآراء عن نسبة المفردات العربية فى اللغة السواحيلية • والحديث عن هذا الأمر لايخلو أحيانا من التعصب وعليه فتحديد مدى تأثر القاموس السواحيلى باللغة العربية يتفاوت ويتأرجح بين انكار المنكرين ومبالغة المبالغين • واذا أخذنا رأى بعض أبناء السواحيلية من المهتمين بأمر البحث عن شئونها ، نجد منهم من يذكر أن نسبة ٧٣٠١٧٪ من قاموس السواحيلية يرجع للغة البانتو ،

بينما ترجع نسبة ٢٢ر٠٩ ٪ للغة العربية[٣٠] • بينما نجد تأثير اللغات الأخرى وهى الانجليزية والفارسية والبرتغالية والهندية مجتمعة لا يتعدى نسبة ٦٪ ويقوى هذا الأثر العربى ويظهر جليا عند الحديث عن المظاهر الحضارية وفى مجال القيم الروحية والدينية • وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد الكلمات التالية التى توضح مجالات الاستعمال التى ذكرناها :

عيب Aibu عقلٌ Akili اكرام أو احترام Akram

عاشق Ashiki خطيئة Hatia حكاية Hikaya هبة Hiba

حج Hiji جبار Jabari جلال Jalali كتاب Kitabu

محكمة Mohakma حكمة Hekima انجيل injili حق Haki

نعمة Neema ذنب dhambi

وتجدر الاشارة الى أن القاموس العربى قد وجد محاربة كما وجد الخط العربى من قبله • ولقد تصدى لمحاربة الكلمة العربية فى اللغة السواحيلية بعض المبشرين والمسيحيين من الوطنيين • ولا عجب فلقد كان يزعجهم ويضايقهم أن يجدوا ان عملهم فى مجال نشر الدين المسيحى بما فى ذلك ترجمتهم للانجيل ، يعتمد الى حد كبير على لغة ارتبطت بالدين الاسلامى ، الذى كان لفيف منهم يحاول محو آثاره • فعلى سبيل المثال نعلم أن المبشر الألمانى Karl Roehl الذى وفد الى افريقيا فى عام ١٨٩٦ أزعجه وجود الكلمات العربية فى الانجيل المترجم الى لهجة زنجبار • ولقد ضايقه ذلك طول فترة بقائه فى افريقيا • كذلك أبحر الى شرق افريقيا مرة ثانية فى عام ١٩٢٦ وحاول أن يترجم الانجيل الى لهجة زنجبار بعد أن يتخلص من الكلمات العربية التى ترد فى المجال الدينى ويستعيض عنها بكلمات من لغة البانتو • ولاشك ان ذلك جهدا ضائعا لانحتاج لتوضيح عدم جدواه • ولكن مع الأسف مازال هناك

30) C. W. Temu, « Swahili Vocabulary Expansion : A preliminary observation, » **Kiswahili**, Vol. 42, March 1972, p. 9.

من يحمل نفس الرأى ويعمل لنفس الهدف من بين الباحثين والسياسيين فى شرق افريقيا •

اللغة السواحيلية والحرف العربى :

من الراجح أن الأدب المكتوب باللغة السواحيلية الذى أشار اليه ابن بطوطة فى القون الرابع عشر ، من الراجح أنه قد كتب بالحرف العربى وذلك لأن الحروف الرومانية واللغات الأوربية التى استعملها لم تعرف طريقها الى افريقيا قبل الاستعمار البرتغالى • بل وفى كثير من أجزاء القارة الافريقية لم تعرف الكتابة الرومانية طريقها الا فى القرنين السابقين • وكثير من المخطوطات العربية والسواحيلية التى تستعمل الخط العربى لاتزال موجودة فى أجزاء مختلفة من الساحل الشرقى الافريقى • وقد عرفت فى شرق افريقيا بعض القصائد العربية والاسلامية الشهيرة التى استعملها السواحيليون كنماذج نظموا قصائدهم فى مجاراتها أو ترجموها الى لغتهم •

وكان من أهم مظاهر محاربة الأثر العربى والاسلامى فى شرق أفريقيا ما لقيه الخط العربى من عنت وحرب • وقد حدث ذلك بالنسبة للغة العربية واللغة السواحيلية على حد سواء • ووضحت هذه الحملة بصورة جلية فى مطلع القرن الحالى واتخذت أشكالا مختلفة • وكان أهون تلك الأشكال ما بدأت تظهره ادارة الاستعمار من تزمت وضيق بالوثائق والمدلولات المكتبية المكتوبة باللغة العربية أو باللغة السواحيلية التى تستعمل الحرف العربى اداة لها • وبعد ذلك دخل المبشرون المسيحيون فى الصورة وساعدوا على محاربة الحرف العربى • فقد كانوا الناس ضيقا به نسبة لارتباطه بالثقافة الاسلامية • فعلى سبيل المثال نجد أن المبشر يوايوس وريشتر Julius Richter بمخاطب مؤتمر المستعمرات الألمانية المنعقد فى عام ١٩٠٥ ويذكر المؤتمرين بأن الاسلام ينتشر حينما انتشرت اللغات المرتبطة به • ويدعو الى الحد من انتشار هذه اللغات بتحريم استعمال اللغة السواحيلية فى

دواوين الحكومة • وفى عام ١٩٠٧ أى بعد مضى عامين من هذه الدعوة نجد أن الادارة الألمانية فى شرق افريقيا تجعل استعمال الكتابة العربية فى الدوائر الرسمية والوثائق الحكومية أمرا يحرمه القانون[٣١] ونتيجة للمحاربة الطويلة ابان فترة الاستعمار صار الحرف العربى حبيس المخطوطات والكتب الأدبية والاسلامية القديمة وفقد بعض وظائفه الهامة كالاستعمال فى مجال الادارة والحكم •

اللغة العربية فى كينيا ويوغندا :

تحدثنا فى جزء سابق عن المؤثرات اللغوية (بل المؤثرات الثقافية عامة) التى دخلت من الجنوب العربى فى أوقات بعيدة • ولكن نود أن نذكر هنا مؤثرات دخلت الى شرق افريقيا من الشمال ، لاسيما من مصر ومن السودان • وبعض هذه المؤثرات ترجع الى مراحل تاريخية حديثة نذكر منها هنا الحكم المصرى فى منطقة هرر Harar بأثيوبيا وما نتج عنه من آثار (١٨٧٥ — ١٨٨٥) • ونذكر منها أيضا ما كان من أمر حملة أمين باشا وما ينتج عنها من نشر للغة العربية فى كينيا ويوغندا • وما يهمنا هنا باختصار أن تلك الحملة والتى كان قوامها جنود سودانيون تحت قيادة مصرية تغلغلت فى يوغندا وكينيا فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٦ — ١٨٩٠) • واستقر جنود تلك الحملة فى أماكن مختلفة فى شرق افريقيا نذكر منها بمبو فى يوغندا وكيرا فى كينيا • والسكان الحاليين لتلك المناطق يذكرون أنهم نوبيون(*) وفدوا الى ديارهم من جنوب السودان • والمهم فى الأمر أنهم يمثلون روافد جديدة من روافد الثقافة العربية الاسلامية • فهم يتحدثون لغة عربية

---

31) Bernd Heine (1970), pp. 90-92.

(*) يجب ان لا نخلط بين هذه المجموعة والنوبة الذين يعيشون فى شمال السودان وجنوب مصر .

مهجنة تشبه الى حد كبير اللغة العربية التى يتحدثها سكان جنوب السودان (٣٢) .

لا شك أن اللغة العربية فى كينيا وبالتحديد فى بعض مناطقها مثل ممبسه ترجع الى أبعد من ذلك بكثير وتستعمل فى مجالات أدبية واسلامية متعددة . ولكننى بالحديث عن مجموعة النوبيين قصدت الاشارة الى بعض المؤثرات العربية الحديثة والطريفة فى تلك المنطقة . فقد وقعت هذه الحادثة (حملة أمين باشا) التى كان من نتائجها نشر اللغة العربية فى تلك المنطقة فى أواخر القرن التاسع عشر . وكان العنصر الرئيسى الذى ساهم فى نشر اللغة والثقافة العربية فى تلك المنطقة يتكون من مجموعة من جنوب السودان . فهم — كما يتضح — عنصر قلما يوصف بأنه عربى . فقد استعمل هؤلاء الجنود اللغة العربية كلغة تخاطب مشتركة فى جنوب السودان . ثم انتقلوا بها الى يوغندا وكينيا حيث تستعمل حتى هذا اليوم . وفى كثير من الأحيان تستعمل كلغة أولى . من هنا يتضح أن اللغة العربية ماتزال ترتاد آفاق جديدة فى أفريقيا .

الأثر العربى فى أدب شرق أفريقيا :

مجال الأدب هو أكثر المجالات التى يتضح فيها الأثر العربى والاسلامى وسوف نستعرض فى هذا الجزء بعض مظاهر الأثر العربى فى أدب شرق افريقيا . ونعنى بالأدب هنا الأدب القولى المتداول شفاهة والأدب المكتوب على حد سواء . ولكن لابد أن نذكر أن الأدب المكتوب ينحصر فى دائرة ضيقة بسبب تفشى الأمية وقلة العارفين بالقراءة والكتابة . هذا بالاضافة الى أن بعض لغات شرق افريقيا لم

---

(٣٣) لمزيد استطلاع عن لغة هذه المجوعة راجع :

Abdon A. Nhail, « Kinubi and Juba Arabic : A Comparative Study », in eds, Sayyid Hurreiz and Heiman Bell, Directions in Sudanese Linguistics and Folklore, Khartoum, K.U.P., 1975.

تكتب الا حديثا • ونتحدث هنا عن أدب ساحل كينيا وتنزانيا وعن أدب الصومال مركزين على الأدب الشفاهى والأدب الاسلامى المكتوب الذى نقل وترجم عن اللغة العربية • ونبدأ حديثنا بالنثر ثم ننتقل الى الشعر مستعرضين بعض ملامح الأثر العربى فيها •

النثـــر :

من يقرأ القصص والسير السواحيلية أو يستمع اليها تحكى ، يلمح الأثر العربى والاسلامى من أول وهلة يتضح هذا الأثر فى شـــخصيات التى تتكرر فى هذا القصص نجد زبيده وأبا نواس وهارون الرشـــيد وذليخة وغيرهم ممن تذكرنا سيرتهم بشخصيات ألف ليلة وليلة • وكذلك نجد هود وصالح وموسى وابراهيم وسليمان وأيوب وعيسى وغيرهـــم من الأنبياء ، رضوان الله عليهم وبالرغم من أن بعض مناطق الســـاحل الشرقى الافريقى قد عرفت اليهودية والمسيحية منذ زمن بعيد ، الا أننا لانشك فى أن هذه الشـــخصيات ومارتبط بها من قصص قد وصـــلت الى الساحل الشرقى الافريقى (لاسيما البلاد التى نتحدث عنها هنا وهى الصومال وساحل كينيا وتنزانيا) عن طريق الاسلام • وذلـــك لسببين : أولهما أن الاسلام قد انتشر فى تلك الأماكن وأثر فى سكانها أكثر من الديانات الأخرى • وثانيهما ان السير التى ارتبطت بهـــؤلاء الأنبياء والتى يتداولها الناس فى الساحل الشرقى الأفريقى تكاد تكون متطابقة لقصص الأنبياء التى ترد فى القرآن الكريم • ولاشك أن حقيقة اعتراف الاسلام بالديانات السماوية التى سبقته وكونه ســـجلا حافلا لاخبار الأولين ، لا شك أن كل ذلك قد أتاح للمسلم فى الساحل الشرقى الافريقى قدرا غير يسير من المعرفة • والواضح أن السواحيليين كغيرهم من المسلمين تداولوا المعرفة فى شكل قصص تروى فى المجالس •

وبالنسبة للشخصيات التى ترتبط بالعالم الخفى وبما وراء الطبيعة، نجد الملائكة والجن والحور والغيلان والعفاريت ، نجد الجن المســـلم

majini waisilamu كما نجد الجن الكافر majini makafiri

ومن أهم الشخصيات فى هذا العالم الخفى شخصية ابليس الذى تدور حوله قصص كثيرة هى نفس القصص المعروفة فى القرآن الكريم والمعروفة فى العالم الاسلامى • ومن بين هذه القصص ما كان من أمر عنجهية ابليس ورفضه الانصياع لأمر المولى عز وجل بالسجود لادم ، لأن ادم خلق من طين وهو خلق من نار • وكذلك قصة الفاكهة المحرمة فهذه القصص السماوية معروفة فى شرق افريقيا ومتداولة بين الناس[٣٣] وفى مجال الوظائف والألقاب المرتبطة بالحكام نجد أيضا جو البلاط العربى المتمثل فى السلطان والخليفة والوزير والقاضى • وفيما يتعلق بالسيرة النبوية التى تحتل مكانا مميزا فى التراث الأدبى السواحيلى ، نجد نفس الشخصيات الاسلامية المعروفة لدينا • نجد عبد المطلب وامنة بنت وهب وحليمة السعدية ، كما نجد جبريل والبراغ وخلاف ذلك من الأسماء التى ارتبطت بالسيرة النبوية • ومن بين الشخصيات التى ترد فى ذلك القصص عنترة وشمشون غير أننا نلاحظ أن بعض القصص العربية التى ترتبط بشخصيات معينة تتخذ شكلا مغايرا وترتبط بشخصيات أخرى فى الرواية السواحيلية • فمثلا نجد ان دور المخادع والفكاهى المحتال الذى يرتبط بشخصية جحا فى التراث العربى يصبح من نصيب أبى نواس فى التراث السواحيلى[٣٤] • وكثيرا مانجد أن نفس نوادر جحا تستند لابن نواس • وليس هذا بالأمر الغريب ، فلقد انطبع فى الذهن العربى ان أبا نواس رجل خفيف الظل ينادم الخلفاء والأمراء ويكسب ودهم • وانتقلت هذه الصورة الى تراث الساحل الشرقى الافريقى ونلاحظ أنه فى غالبية القصص التى يرد فيها ذكر ابن نواس ، نجده فى صحبة الخليفة هارون الرشيد •

فى خلاصة هذا الحديث عن الشخصيات يتضح ان هناك بعض

---

33) J. Knappert (1970), pp. 24-30.

34) Ibid, pp. 112-117.

الشخصيات التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالاسلام ودورها الرئيسى فى القصص هو ان تعبر عن قيم الاسلام وتعاليمه • وهناك شخصيات عربية عرفت قبل الاسلام مثل عنترة ومثل الأنبياء الذين ورد ذكرهم • وهناك مجموعة أخرى رغم أنها نشأت فى ظل الاسلام وعرفت فى بعض حقبه ، الا أنها تلعب أدوارا فنية وأدبية خالصة • ومن بين هذه الشخصيات أبو نواس • ولا شك ان هناك شخصيات محلية افريقية بجانب الشخصيات العربية الاسلامية التى تحدثنا عنها •

أما عن محتوى ومضمون هذه القصص فمنها ما تتحدث عن القضاء والقدر وعن زيف هذه الحياة وزوالها • ونها ماتتحدث عن كرامات الأنبياء ومناقب الأولياء • والبعض الاخر يحكى عن التجارة والقوافل والثروة • وبعضعها يعكس جو القصور أثناء العصر العباسى وما صاحبه من تفسخ فى القيم وانغماس فى الملذات • وعدد غير يسير من هذه القصص يتحدث عن الجنس وعن النساء فنجد المرأة اللعوب التى يتنافس العشاق على اغوائها واغرائها بالمال والهدايا • وكذلك نجد الزوج الغيور الذى يشك فى وفاء زوجته • نقرأ هذه القصص أو نستمع اليها فتحس وكأنك تقرأ ألف ليلة وليلة أو تعيش فى بلاط أمير عباس منغمس فى الملذات • ونجد فى هذه القصص أيضا الحيلة والمكر والقوة والبطولة وبعض هذه القصص يحتوى على عادات ومعتقدات عربية قديمة فنجد بينها مايدور حول الاعتقاد فى العين أو يتحدث عن البومة على أساس أنها نذير شؤم • ومن بين هذه القصص أيضا مايرتكز على الاعتقاد فى اكسير الحياة أو الشجرة الحياة • وتجدر الاشارة هنا الى أن الاعتقاد فى فكرة شجرة الحياة سائد بين العرب ، الا أنه لايقتصر على العرب فحسب بل يرتبط بالمجموعة السامية التى ينتمى اليها العرب والتى تحدثنا عنها فمن مكان سابق •

ويجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة هنا نتدبر فيها أمر هذا المحتوى الذى تميز به القصص العربى والاسلامى منذ زمن بعيد ، والذى نجده

فى قصص شرق افريقيا • ويبدو أن هذا النوع من القصص وجد الراوى الذى بث فيه الحياة • وكذلك وجد المستمع الذى أعاره اذنا صاغية وتجاوب مع محتواه ومضمونه الفنى • ولكن كيف ولماذا تم ذلك •

للاجابة على هذا السؤال لابد أن نذكر أولا أن القصة لا تعيش فى فراغ أجوف • ولابد لها من جو اجتماعى متميز يتكون من راوى ومستمعين ومضمون يجذب المستمعين الى هذا الراوى ويشدهم اليه • والراوى أو القاص الفطن هو الذى يدرك هذه الحقيقة فيحسن اختيار الموضوع الذى يقترب من واقع مستمعيه والذى يمكنهم من التجاوب معه• فاذا نظرنا الى القصص العربى نجد هناك السلطان والوزير والأمير والقافلة والتاجر الثرى والغوانى • وفى الساحل الشرقى الافريقى نجد نفس هذه العوامل • ويمكن للراوى أو القاص السواحيلى أن يحكى لمستمعيه أى قصة عربية وهى لاشك تجد فى نفوسهم قبولا وارتياحا • ويبدو أن القصص العربى قد وجد طريقه الى منطقة الساحل الشرقى الافريقى عبر الهجرات العربية وعن طريق الكتب والمخطوطات ، غير أن هذا الأمر يحتاج لدراسة متأنية تعتمد على الوثائق والعمل الميدانى • وما يهمنا هنا ان هذا النوع من القصص العربى قد شاع وانتشر وعاش حتى يومنا هذا فى الساحل الافريقى لأنه عبر عن واقع ورغبات قطاعات مختلفة من المجتمع السواحيلى • فقد وجد فيه المسلم المتنسك ضالته كما وجد فيه الماجن العربيد متعته •

السيرة النبوية :

من الناحية الفنية نرى أن السيرة النبوية أقرب الى الملاحم فهى تسرد قصة فى صياغة شعرية • كذلك الحديث عن السيرة النبوية فى شرق افريقيا يربط بين الأدب المكتوب والأدب الشفاهى • فهى أدب مكتوب ترجم عن أصول عربية ، لكنها فى نفس الوقت نزلت الى عامة الناس فتناقلوها شفاهة ومنهم من حفظ أجزاء طويلة منها • ولاشك أن

السيرة النبوية لعبت دورا كبيرا فى بلورة الفكر الاسلامى فى شرق افريقيا • فلقد لعبت دورا كبيرا فى صياغة هذا المجتمع وانعكست فى عقائده ولغته وأدبه بل وفى سلوكه •

وكما ذكرت فان السيرة النبوية فى شرق افريقيا عبارة عن ترجمة من سير عربية لمولد النبى (ص) الى اللغة السواحيلية وأشهر هذه التراجم وأكثرها انتشارا مأخوذ عن مولد جعفر البرزنجى • ولقد لقى مولد البرزنجى ذيوعا وانتشارا فى الجنوب العربى والباكستان وأندونيسيا وشرق افريقيا • وهناك أكثر من ترجمة واحدة لهذا الكتاب فى شرق افريقيا أشهرها Kitabu Mauludi ويقع فى تسعة وعشرين جـزءا •

ويبدأ المولد بالصلاة والدعاء ثم يسرد نسب أسرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتحدث عن ارادة الله ان ينزل الحق على يد رسوله الكريم فيوضح كيف جمع سبحانه وتعالى بين عبد الله بن عبد المطلب والسيدة آمنه وماكان من أمر حملها بالرسول (ص) وفى الجزء السادس يتحدث عن ميلاد الرسول (ص) فى ١٢ ربيع الأول من عام الفيل •

وبعد ذلك يتابع أحداث سيرة الرسول (ص) بالطريقة المعروفة للمسلمين •

الأساطير التاريخية والدينية :

فى الأماكن المختلفة من الساحل الشرقى الافريقى ، لا سيما فى مناطق المسلمين نجد هناك العديد من الأساطير الدينية التى ترتبط بالطرق الصوفية المنتشرة فى تلك المناطق كالقادرية والسمانية وخلافهما • وهذه الأساطير تحكى عن وصول الشيوخ الذين انتشرت هذه الطرق على أيديهم فى المنطقة • كما تتحدث عن دورهم فى نشر الاسلام وعن كراماتهم ومناقبهم ومناقب المقربين من أتباعهم الذين أخذوا الولاية عنهم • وتجدر الاشارة الى أننا نجد أن الأساطير الدينية والأساطير التاريخية تتداخل

مع بعضها ونجد أن العناصر الاسلامية والعناصر العربية تكاد تلتحم فى هذه الأساطير •

فى الجزء التالى نتحدث بايجاز عن بعض الأساطير التى تدخل تحت نطاق الصلات العربية الأفريقية والتى تحكى عن رغبة المجموعات الأفريقية المسلمة فى الارتباط بالعرب عرقيا وثقافيا وتنتشر هذه الأساطير فى شتى المناطق الاسلامية فى الساحل الشرقى الافريقى • غير أننى اكتفى بالاشارة الى وجودها فى منطقة هرر[٣٥] بأثيوبيا وبين الباجونى [٣٦] فى كينيا وفى الصومال[٣٧] •

واذ خرجنا عن نطاق الساحل الشرقى الافريقى فاننا نجد أن هذه الأساطير تنتشر على طول الحزام الاسلامى الافريقى الذى يمتد من الصومال الى السنغال •

وتدور هذه الأساطير حول دور الفقيه المعلم العربى الذى يفد الى افريقيا من بعض أجزاء الوطن العربى والذى يرتبط بالأسرة الحاكمة ويعطيها العلم والدم العربى والثقافة الاسلامية وتكتسب بفضله وفضل ما اكتسبت عن طريقه مكانا مرموقا ومميزا بين الأسر الأخرى •

ويقوى بذلك تأثير هذه الأسرة فى المجال الثقافى والاسلامى وتزداد سطوتها فى مجال الحكم • وبعد ذلك تنظر هذه المجموعات الافريقية المسلمة تلك المرحلة (مرحلة ارتباطهما بالمعلم الفقيه العربى) على أساس انها بداية نشأتها وتاريخها وتهمل كل ماسبق تلك المرحلة مع التركيز عليها وعلى ماسيعقبها • ثم يبدأ افراد هذه المجموعة يذكرون أنهم عرب وأن هذا الفقيه المعلم هو جدهم وعن طريقه ينتسبون الى العرب • وبعد ذلك يصوغون سلاسل النسب والأساطير التى تربطهم بالوطن العربى •

---

35) J. S. Trimingham (1952), p. 141.
36) A. I. Salim (1973), p. 19.
37) B. W. Andrzejewski (1964), p. 153.

وكما هو متوقع فان العديد من هذه المجموعات تحاول الارتباط بقريش وادعاء النسب القرشى غير أن هذا الارتباط العربى الأفريقى لايقتصر على الجانب الدينى • فبالاضافة الى الحجاز ــ وقريش على وجه التحديد ــ نجد تراث المجموعات المسلمة فى شرق افريقيا يحاول ربطها بمصر وسوريا والجنوب العربى ودول الخليج •

يمكن اعتبار هذا النوع من التراث المتمثل فى الأساطير الدينية والتاريخية ومايرتبط بها من انساب على أساس أنه مؤشر هام فى طريق الصلات العربية الافريقية • ولاشك أن هذه الأساطير تتفق فى مضمونها العام مع الواقع التاريخى فى تلك المنطقة ، غير أنها تختلف عنه فى كثير من تفاصيلها • ومايهمنا هنا أنهما صدى للمؤثرات العربية والاسلامية فى تلك المنطقة • وهى فى نفس الوقت اعتراف بهذه المؤثرات واعلان عن الرغبة فى المزيد منها •

الشـــعر :

بجانب الشعر الذى ينظم ويغنى باللغات المحلية والشعر السواحيلى الذى يستعمل قوالب ومعانى افريقية محلية نجد فى شرق أفريقيا شعرا نظم باللغة العربية وشعرا يترجم من العربية الى السواحيلية • كما نجد شعرا سواحيلى اللغة ولكنه عربى غالبا ومضمونا ، فهو يزخر بالمعانى العربية ويستعمل قوافى الشعر العربى ووسائله الفنية • وتستعمل اللغة العربية فى الشعر الدينى على وجه الخصوص • غير أن الشعراء فى شرق افريقيا قد نظموا باللغة العربية فى أغراض مختلفة • وكما ذكرنا من قبل نجد أن الصفوة من المتعلمين فى الصومال يتقنون اللغة العربية ويتذوقونها •

وهى بالنسبة لهم لغة الأدب والشعر • ولابد للشاعر الصومالى أن ينظم باللغة العربية لكى يحظى بتقدير المتعلمين وينال مكانا مرموقا فى الوسط الأدبى • ولقد أورد الدكتور أندروفسكى Andrzejewski

فى كتابه عن الشعر الصومالى عددا من الشعراء الصوماليين الذين أجادوا اللغة العربية ونظموا فيها شعرا رصينا • ولعل هذه الرصانة تتضح فى الشعر الدينى الذى يمدح به الشعراء الشيوخ والصالحين • ويوجد فى هذا الشعر النكهة الدينية المعروفة فى العالم الاسلامى • كما نجد فيه المعانى العربية المتوارثة • نسوق على وجه المثال قصيدة الشاعر عبد الله حاشى فى مدح الشيخ اسحق التى يقول فيها : —

الهى احمنا من كل شر وفتنة بحرمة نور الدين اسحاق عمدتى
بدأت بذكر الله نظمى وحمده وأشكره فى كل نمر ونعمة
وصلت بالمختار أفضل مرسل محمد المبعوث من خير أمة
توسلت بشيخى وجدى وعمدتى به استغيث كل كرب وشدة

ويستمر فى المدح الى أن يقول :

سخى زكى زاهدا ومتعطف فكم فيه من فضل وعلم ورحمة
ولى عظيم مات غيظا حسوده جواد به تذهب فقرى وفاقتى

ثم يواصل الشاعر مدحه ويذكر آل بيت محمد (ص) فيقول : —

انتم احبابى وعروة موثقى فبالله جودوا بالوان نعمة
وأنتم منا (منى) قلبى وراحة تالبى وأنتم مرادى بل وروحى وراحتى
فيارب عطر قفرة وامدنا بأسراره الحسناء فى كل لحظة
خليلى اعنى بالبكاء فأننى أرى حبهم رشدى وعونى وملتى

والواضح من المثال السابق أن هذا النوع من الشعر الصومالى يستعمل نظام القافية المعروف فى الشعر العربى • كما يستعمل نفس الأسلوب والمعانى مما يجعله يبدو وكأنه امتداد طبيعى للشعر العربى •

ونرى كذلك أن الشعر السواحيلى يستعمل القوالب الشعرية

العربية ومن أهمها نظام القافية والالتـــزام بها • يحـدثنا كنابرت Knappert بأن هناك أربعة أوزان رئيسية فى الشعر السواحيلى وهى ukawafi, kisarambe, utenzi, shairi ويتضح الأثر العربى فى أسماء هذه الأوزان كما يتضح أيضا فى استعمال كلمات أخرى ترتبـط بالشعر مثل كلمات قصيدة Kasida وكلمة muhammasi (خماسى) ••• الخ •

أكثر الأوزان استعمالا فى الشعر الدينى وزن الـ utenzi ووزن الـ ukawafi والملاحظ أن هذين الوزنين فى شكل رباعيات • النوع الأول يتكون من أربعة شطرات وكل شطرة تتكون من ثمانية مقاطع بينما نجد أن مقاطع النوع الثانى تتفاوت بين ١١ ــ ١٥ (وعادة تكون ١٥) • وهو يتكون أيضا من أربعة شطرات •

وهذا النوع من الرباعيات معروف فى التراث الأدبى ويســتعمل بكثرة فى الشعر الفارسى •

ولعل خير لذلك « رباعيات الخيام » ولقد استعملت الملحمة الفارسية• (الشاهنامه) التى نظمها الفردوس نفس هذا النوع من الرباعيات • وتجدر الاشارة الى أن « الدوبيت» أشهر أنواع الشعر الشعبى السودانى وأكثرها ذيوعا يستعمل هذا التفسير الرباعى • فالواضح اذا أن الأوزان والقوالب الشعرية المستعملة فى اللغة السواحيلية لها نظائرها فى الشعر العربى والاسلامى بل هى بمثابة صدى لمؤثرات عربية اسلامية فقـد أخذها السواحيليون عن العرب • وما يؤيد هذا الرأى أنها ارتبطت بقصائد عربية بعينها ترجمها السواحيليون من العربية الى الســواحيلية واتخذها نموذجا لاشعارهم • ومن بين هذه القصائد قصيدة كعب بن زهير « بنت سعاد » و (نهج البردى) للبصيرى ونجد نفس هذه القصائد فى الصـــومال •

خلاصـــــة : ــ

المؤثرات العربية فى شرق افريقيا فى مجالات مختلفة من اهمها اللغة والعادات والمعتقدات والآداب المكتوبة والشفاهية الشعبية وغيرها • ولقد جاءت هذه المؤثرات نتيجة لصلات تاريخية قديمة بين الساحل الشرقى الافريقى والوطن العربى ، لاسيما الأجزاء الجنوبية منه • كما تأصـلت هذه المؤثرات وبقيت بفضل الدور الذى لعبه العرب فى التجارة والتعليم والادارة فى تلك الأجزاء • بالرغم من أن بعض هذه المؤثرات ذات طابع عربى خالص ، ومنها ماوجد طريقه الى الساحل الشرقى الأفريقى قبل الاسلام غير أننا نجد أن قدرا غير يسير من هذه المؤثرات ارتبـط بالاسلام وانتشر تحت ظله • فمثلا نجد أن الثقافة السواحيلية ترتبط ارتباطا وثيقا بالاسلام ، وان هذا الارتباط ينعكس على التراث والآداب والمعتقدات السواحيلية كما يظهر جليا فى قاموس اللغة السواحيلية •

كما ذكرت فى مقدمة هذا البحث أن المبالغة فى الحديث عن الأثر العربى فى الثقافة الأفرقية أمر ضار وقد يأتى بغير مايرجى منه لأنـه قد يؤدى الخلق « عقدة ثقافية » وحواجز نفسية بين الافريقى والعربى • ولكن فى نفس الوقت لابد من دراسة الارتباط العربى الافريقى وتوضيح جذوره وآفاقه والصور التى اتخذهما عبر العصور • ولايمكن أن نعمـل هذا الجـانب ولكى ينبغى أن لانتحـدث عنه فى شىء من المبـالغة و « الشوفينية » لذلك فقد قصدت عند اختيارى لمراجع هذا البحث أن استعمل من بينها ماكتبه غير العرب • وعلى وجه التحديد ما كتبـه الأوربيون وبعض السواحيليين من أهل المنطقة • وقد حاولت أن أستعمل هذه المراجع فى شىء العدل والحذر • ودفعنى الى ذلك شعورى بحساسية الحديث عن هذا الموضوع واقتناعى بأن العربى يكون فى موضع اتهام عندما يتحدث عن المؤثرات العربية فى منطقة ما بينمـا ان الأوربى أو السـواحيلى لا مصلحة له فى المبالغة فى توضيح المؤثرات العربية •

أسوق هنا على سبيل المثال ماذكرته ، على لسان أحد أبناء شرق افريقيا، عن أن نسبة ٢٢٫٠٩٪ من قاموس اللغة السواحيلية تأتى من اللغة العربية. واعلم أن من بين العرب من يذكر أن النسبة أعلى من ذلك بكثير . ولكنى فضلت أن يتحدث غير العرب عن الآثار العربية . وكذلك ماذكرته على لسان الحكام البريطانيين واعترافهم بالدور الذى لعبه العرب فى ادارة وحكم شرق افريقيا ولو ذكرت هذا الدور على لسان كاتب عربى ، لكنا جميعا موضع اتهام .

ولابد من اتباع منهج جديد فى حديثنا عن العناصر العربية والاسلامية وامتدادها الى بعض مناطق القارة الافريقية . فافريقيا قد وضعت بصماتها فى العنصر الثقافى التى اكتسبتها من العالم العربى والاسلامى وأحيانا أعادت صياغة هذه العناصر بعد ان أضفت عليها من روحها ومن ثقافتها بصورة تمكننا من أن نتحدث عن النتاج الجديد لهذا التفاعل على أساس أنه ثقافة أفرو عربية أو أفرو اسلامية . ويجب أن يكون هذا المفهوم بمثابة نقطة الانطلاق بالنسبة للعلاقات العربية — الافريقية المعاصرة — والمنبثقة عن مبدأ المساواة الفكرية .

ولعله قد آن الأوان لكى نرصد ونتدارس الوجه الآخر من المسألة ، أى ماكان من أمر الأثر الافريقى فى الوطن العربى فى مجالات الثقافة والسياسة وخلافهما . فهناك مؤثرات افريقية كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : غزو أثيوبيا للجزيرة العربية وماترتب عنه من مؤثرات ، ثورة الزنج ودورهم فى بعض العصور التاريخية ، دور بعض الشخصيات الهامة فى التراث العربى والاسلامى . وبالنسبة للاحداث المعاصرة هناك أيضا العديد من الموضوعات التى يمكن التركيز عليها ، ومن أهمها دور العالم الافريقى فى حرب أكتوبر ومؤازرة العرب سياسيا واعلاميا . لابد اذا من اتباع هذا النهج الجديد حتى تتم المساواة الفكرية وتتحطم « الشوفينية » وتتلاشى بعض الحواجز النفسية بين العرب والأفارقة .

وبذلك يصفو المجال لدعم الصلات العربية الافريقية • ولابد أيضا من أن ترتكز السياسة على الفهم الثقافى ، وأن يكون التحرك السياسى مرتبطا بالجوانب الثقافية •

ثبت المراجـــع

Andrzejewski, B. W. and Lewis, I. M., **Somali Poetry An Introduction,** London, O.U.P. 1964.

Beier. U. **The Origin of Liife and Death,** London, Heinemann, **1966.**

Dange, H. G. Quran School System in Ethiopia, paper **presented,** for the interdisciplinary Saminar, Haile Selassie I'University, Nov. 1971.

Ghali, Boutros, « The Foreign Policy of Egypt, » in Joseph Black & K. Thompson, **Foreign Policies in a World of Change,** N. York, 1963.

Heine, Bernd, **Status & Use of African Lingua Francas,** Munchen, **1970.**

Hitti, P. **History** of the Arab, London, 1964.

———— The Arabs : **A Short History,** Second ed., Chicago 1970.

Jonnson, **Swahili — English Dictionary,**

Knappert, J. **Myths and Legends of the Swahili,** London, Heinemann, **1970.**

———— **Swahili Islamic Poetry,** Leiden 1971.

Leseau, W. « Characteristics of the Ethiopic Language Group of Semetic Languages, » in A. N. Tucker & M. A. Bryan, **Linguistic Analyses,** London, O.U.P., 1966.

Mazrui, A. « The Multigle Marginality of the Sudan, » in Y. F. Hasan ed., **Islam in Africa, Khartoum, K.U.P. 1971.**

Mboya T. **Freedom and After,** Boston, 1963.